

أهل البيت

محمود الشرقاوي

مطبعة



اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

أهل البيت

حمزة بن عبد المطلب
العباس بن عبد المطلب
علي بن أبي طالب
فاطمة الزهراء
الحسين بن علي
الحسين بن علي
الشيعة زينب
السيدة نفيسة

محمود الشرقاوي



مقدمة

أهل البيت هم مصابيح الهدى . شجرة النبوة ، مهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ، ومعدن العلم ، العاملون بالقرآن المجيد ، المستجاب دعاؤهم ، الذين رضوا عن الله فرضى الله عنهم .

روى البخارى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« لكل شيء أساس ، وأساس الاسلام حب أصحابي وأهل بيتي »
وقال صلى الله عليه وسلم :

« من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، إلا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، إلا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا . إلا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ، إلا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، إلا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها . إلا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان الى الجنة ، إلا من مات على حب آل محمد جعل قبره مزار ملائكة الرحمة إلا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة . إلا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ، إلا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، إلا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » .

وقد خصهم الله تعالى بنزايها منها تحريم الصدقة عليهم لكونها وساخ الناس وتعويضهم من الفء والغنيمة ، وطلب اكرامهم وتوقيرهم .

وحدث الرسول صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بهم والتعلم منهم فقد يراهم الله تعالى من كل وصمة وسقطعة وعثار وميزهم بأنهم الحائزون لفضيل السبق في كل كمال ومضمار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت » .

وروى الديلمى والطبرانى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

- لا يؤمن عبد حتى اكون احب اليه من نفسه ، وتكون عشتري احب اليه من عشرته واهلى احب اليه من اهله وذاتى احب اليه من ذاته .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

- توفي لصفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ابن ، فبكت عليه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- تبكين با عمة ، من توفي له ولد في الاسلام كان له بيت في الجنة يسكنه .

فلما خرجت لقيها رجل ، فقال لها :

- ان قرابة محمد لن تفنى عنك من الله شيئا ، فبكت ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتها ، ففزع من ذلك فخرج ، وكان صلى الله عليه وسلم مكرما لها يبرها ويحبها ، فقال لها :

- يا عمة ، تبكين ، وقد قلت لك ما قلت ؟

قالت : ليس ذلك أبكاني ، وأخبرته بما قال الرجل ، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال :

- ما بال أقوام يزعمون ان قرابتي لا تنفع ان كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة الا سبى ونسبى وان رحمتى موصولة في الدنيا والآخرة .

وروى عن كعب بن شجرة أنه قال : لما نزلت الآية الكريمة :

« ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟

فقال : قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

- « لا تصلوا على الصلاة البتراء » .

فقالوا : وما الصلاة البتراء .

قال : نقواون اللهم صلى على محمد وتمسكون بل قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

قال الامام الشافعى رضى الله عنه :

يا أهل بيت رسول الله حبيكم
فرض من الله في القرآن أنزله

كفناكم من عظيم القدر انكم
من لم يصل عليكم لاصلاة له (١)

وحب أهل البيت واجب . فهم أساس الدين ، وعماد اليقين . يقول
الامام محيى الدين بن عربى :

رايت ولأئى آل طه فريضة
على رغم البعد يورثنى القربا
فما طلب المبعوث أجرا على الهدى
بتبليغه الا المودة فى القربى

ويقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

آل النبى ذريعتى

وهو البند وسيلتى

أرجو بهم أعطى غدا

ببند اليمين صحيفتى

وكان السلف الصالح يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآله
الطاهرين وعترته المباركين ، فيفرج الله تعالى كربهم ، ويكشف غمومهم ،
فقد قصدوا مهابط يستجاب فيها الدعاء ، وتحيط بها ملائكة السماء .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثانى الخلفاء الراشدين ، من اعز
الله به الاسلام ، وقد عرف للعباس بن عبد المطلب رضى الله عليه ، عم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنوايه ، قدره ، توسل به فى حاجته
وحاجة المسلمين ، ففى عام الرمادة ، رأى عمر ، متبدلا : متضرعا ، وعن
يمينه العباس بن عبد المطلب خرج للاستسقاء ، فدعا يومئذ وهو مستقبل
القبلة رافعا يديه الى السماء يقول :

— اللهم انا كنا اذا قحطنا توسلنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم
فتسقينا ، وانا نتوسل اليى بعم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونستشفع
به اليك فأسقنا .

(١) أى لا صلاة له صحيحة أو لا صلاة له كاملة (الصواعق المحرقة ص ٨٨)

وقال العباس :

- اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء ، الا بذنب ، ولا يكشف الا بتوبة ،
وقد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ،
ونواصينا بالتوبة ، وانت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار
وضيعة فقد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وانت تعلم
السر واخفى ، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فانه لا يياس
من رحمتك الا القوم الكافرون .

فما اتم دعاءه ، حتى هطل المطر ، ويروى لابن عفيف فى الاستسقاء
بالعباس :

ما زال عباس بن شيبه غاية
للناس عند تنكر الايام
رجل تفتحت السماء لصوته
لما دعا بدعائة الاسلام
فتحت له ابوابها لما دعا
فيها بجند معلمين كنرام
عم النبي فلا كمن هو عمه
ولد ولا كالعم فى الاعمام
عرفت قريش يوم قام مقامه
فيه له فضل على الاقوام

وروى ابن ماجه عن ابي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه . ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : « من خرج من بيته الى الصلاة ، فقال :
اللهم انى اسألك بحق السائلين عليك ، واسألك بحق مشاييك ، فانى
لم اخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، انما خرجت اتقاء سخطك ،
وابتغاء مرضاتك ، فاسألك ان تعيذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه
لا يغفر الذنوب الا انت ، اقبل الله تعالى عليه ، واستغفرت له الملائكة » .

وفى هذا الحديث الشريف ، حث الرسول صلى الله عليه وسلم على
التقرب بالسائلين ، والتوسل بهم . ومن اولى بذلك من سألنى السادة
المقربين ، الطاهرين ، وهم آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم .

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات فاطمة بنت أسد ، أم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال :

— اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى .

فثبت بهذا الحديث ، جواز التوسل بالأنبياء ، مما يؤيد ثبوت أصل التوسل بلا مرأى .

وروى البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه ضرير فقال :

— يا رسول الله ، أدع الله لى أن يعافينى .

فأمره بأن يتوضأ ، ويحسن الوضوء ، ويقول :

— اللهم انى أسالك وأتوجه اليك ، بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد انى أتوجه بك الى ربك فى حاجتى لتقضى ، اللهم شفعه فى . ففعل فعاد بصيرا .

وفى هذا الحديث ، أمر من رسول الهدى بالتوسل بالنبي عليه السلام ، وهو رأس التوسل ، وفى بنائه أساس متين . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتوسلون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، وهم نجوم الهدى ، ومنار الرشاد ، وقدوة العباد .

روى ابن شعبة والبيهقى أن الناس أصابهم قحط شديد فى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فجاء بلال بن الحرث ، الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

— يا رسول الله ، استسق لأمتك فانهم قد هلكوا

فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال :

— ايت عمر فاقم له السلام ، وأخبره انهم يسقون .

فقام من نومه مسرورا ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا .

وهذا نص صريح فى توسل الصحابة عن الأمة برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . وهو دامغ لمن لا يجيز التوسل به صلوات الله عليه بعد لحوقه بالرفيق الأعلى ، وآية على جواز التوسل بمن مات من آل بيته رضى الله عنهم ، لأنهم جزءه ، ويضعه منه .

قال صلى الله عليه وسلم :

– حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ومماتي خير لكم تعرض على اعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله تعالى عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم .

يقول الأستاذ الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقا في مقدمته لكتاب « شفاء السقام » للإمام السبكي :

« كما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت ، والفعل لله وحده ، جاز أن يتوسط ميت في قضاء مصلحة حي أو ميت ، والفعل لله وحده ، فالأرواح باقية على الحياة » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمد حسنين مخلوف :

« ان الروح تبقى في البرزخ مدركة تسمع وتبصر وتسبح صباحا في ملك الله حيث اراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الاخرى ، وتأنس بها وتناجيهما سواء اكانت أرواح احياء ام ارواح اموات » .
وقال أيضا :

– « وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من اصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ، وانها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر أرواح الأحياء عند لقاءها ، وتقضى حوائج الناس ، وانها تقدر على ما لا نقدر على مثله حال اتصالها بالبدن في الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة وغير متمثلة وظاهر ان هذا هو لبعض الأرواح التي يؤذن لها بذلك » .

واهل البيت في برزخهم ، يفيضون ، كما كانوا يفيضون في الحياة الدنيا ، حيوية ومحبة ، ومن علاهم يمدون ايديهم ويهدون علمهم ، ويبشون احياءاتهم للأحياء بالعمل الصالح ، والاقبال على طاعة الله تعالى .

وهذا الكتاب يروى صفحات مشرفة عطرة من حياة اهل البيت النبوي الكريم ، سادات العباد ، وانوار الله في جميع البلاد .

كانت حياتهم - رضى الله عنهم - عطرا فواحا لا يفنى بمرور الزمن .
ولا يذهب ريحه الطيب الزكى بتوالى الحقب والايام ، انما هو عطر خالد
باق نستروحه فى كل حين فنجد انه هو العطر الفواح الذى تهدأ به النفس ،
وينشرح له الصدر ، ونستقبل به الحياة - فى دفاعنا عن الحق . وذودنا
عن المبادئ الشريفة - احسن الاستقبال . وما احرنا ان نقبض من منهجهم .
القويم ، وطريقهم المستقيم فى الحياة ما يوصلنا الى خير الدنيا والآخرة .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق

محمود على الشرفاوى

فارس الاسلام

علاء بن أبي طالب

ولد داخل الكعبة ، وربى في منزل الوحي ، وتتلذذ للقرآن الكريم واستوحاه ، فأوتى الحكمة وفصل الخطاب ، هو كما قال عنه أبو الحسن البصرى : كان والله سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، ربانى هذه الأمة ، أعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما فيه حتى قبضه الله اليه ، فكان امام الفقهاء وعلماء الشريعة ، واقدروهم على استنباط الأحكام الدينية ، واليه رجع الخلفاء من قبله في مشكلات الحكم والقضاء .

وهو رضى الله عنه ، فتى الفتيان ، وفارس الاسلام .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن فتوة الاسلام :

— لفتيان أمتى عشر علامات .

وسأل سائل :

— وهل لأمتك فتيان يا رسول الله ؟

أجاب عليه الصلاة والسلام :

— نعم . واين الفتوة الاولى ، من فتوة أمتى ؟

— وما تلك العلامات يا رسول الله ؟

— صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، واداء الأمانة ، وترك الكذب ، والرحمة باليتيم ، واعطاء السائل ، وبذل النائل ، واكثار الصنائع ، وقرى الضيف ، والحياء .

لقد كان السائل هو نفسه على بن أبى طالب ، وكان لا يدري انه سيكون فتى الفتيان ، لانه كان اشجع فرسان الاسلام ، فى الصبر على المكاره ، ومواجهة المصاعب ، بقلب المؤمن وبموقف القدوة ، وضرب المثل . يقول الرسول الأعظم :

— لا سيف الا ذو الفقار ، ولا فتى الا على .

وعلى كرم الله وجهه هو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهى أول هاشمية وادمت لهاشمنى . وهى أول امرأة بايعت الرسول صلى الله عليه وسلم من النساء ، ثم هاجرت الى المدينة وتوفيت بها . وكان الرسول

صلى الله عليه وسلم يكرمها ويعظمها ويدعوها « أمى » . وقد أوصت اليه حين حضرته الوفاة ، فقبل وصيتها ، وصلى عليها ، ونزل لحسدها ، واضطجع معها فيه بعد أن البسها قميصه وقال :

— اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك محمد والأنبياء الذين من قبلك فانك أرحم الراحمين .

فقال له أصحابه :

— أنا ما رأيناك صنعت — يا رسول الله — بأحد ما صنعت بها .

فقال عليه الصلاة والسلام :

— أنه لم يكن أحد بعد أبو طالب أبر بى منها ، إنما البستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر .

ولد على قبل البعثة بعشر سنين ، وكان أبوه أبو طالب كثير العيال ، فلما أصاب مكة جذب ، سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبى طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده ، وذهب الرسول والعباس الى أبى طالب ، وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم العباس جعفر ، وضم الرسول عليا . وقد نشأ على فى بيت الرسول الأعظم ، وعاش فى كنفه ، ونعم بقربه ، وظفر بعطفه ، وكان أقرب الناس الى قلبه ، وأحبهم الى نفسه .

ولما بعث الله (جلّت قدرته) محمدا الى الناس مبشرا وهاديا ونذيرا ؛ كان على بن أبى طالب أول من اقتبس من ذلك النور الإلهى ، فانشرح صدره بهذه الدعوة الكريمة ، وقد روى عنه أنه قال : « لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين ، فكان بذلك أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : روى عن أنس بن مالك أنه قال : استنبنى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء .

وروى يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال : حدثنا يحيى بن الأشعث عن اسماعيل بن اياس بن عفيف الكندى عن جده قال :

« كنت أمرا تاجرا فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لابتساع منه بعض التجارة . وكان أمرا تاجرا ، فوالله ، انى لعنده بمنى ، اذ خرج رجل من خباء قريب منه : فنظر الى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلى ، ثم خرجت امرأة من ذلك المخبأ الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامت خلفه تصلى ، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك المخبأ فقام

معهما يصلى ، فقلت للعباس . من هذا يا عباس ؟ . قال : هذا محمد بن عبد الله ابن أخى . قلت : من هذه المرأة ؟ قال : هذه أمراة حديجة بنت خويلد قلت : من هذا الفتى ؟ ، قال : على بن أبى طالب ابن عمه . قلت : ما هذا الذى يصنع ؟ . قال : يصلى ، وهو يزعم أنه نبي ، ولم يتبعه فيما ادعى إلا امراته وابن عمه هذا الغلام ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر « فى هذا البيت الذى ترفرف عليه أجنحة العناية الإلهية ، ويتضوع بأريج الدعوة المباركة ، ويشع منه نور الهداية ، عاش على بن أبى طالب ، فنشأ على الفضيلة ، والتقى والورع ، وخشية الله جل شأنه .

يقول ابن أبى حديد . « كان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوما ، كما كان غاية الغايات فى التقوى والورع ، ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة ، وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفيين ليلة الهرير ، فيصلى عليه ورده ، والسهم تقع بين يديه ، وتمر على صماخيه يمينا وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته ، وما ظنك برجل كانت جبهته كثفة (١) البعير لطول سجوده ، وانت اذا تأملت دعواته ومناجاته وقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزته والاستخذاء له ، عرفت ما ينطوى عليه من الإخلاص وفهمت من أى قلب خرجت وعلى أى لسان جرت » .

ظل على يشارك الرسول أفراحه وأتراحه ، ويقاسمه حلو العيش ومره ؛ يفرح اذا رأى الدعوة الإسلامية مرفوعة اللواء ، ويبئس اذا أصاب الرسول ضرر قريش وإبداؤها فى هذه الدعوة الكريمة .

يقول البدر العيني فى شرح البخارى : « على بن أبى طالب الهاشمى المكي المدني ، هو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة ، قال له : انت أخى فى الدنيا والآخرة ، وأبو السبيلين ريحانتى الرسول ، وأول هاشمى ولد بين هاشميين ، وأول خليفة من بنى هاشم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . واحد الستة من أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، واحد الخلفاء الراشدين ، واحد العلماء الربانيين ، واحد الشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، واحد السابقين الى الإسلام ، واحد الثابتين يوم أحد ، شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها الا تبوك ، استخلفه فيها الرسول على المدينة ، وأصابته

(١) الثغنة من البعير والناقة : الركبة .

يوم « احد » ست عشرة ضربة ، واعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم
الراية يوم خيبر ، واخبر ان الفتح يكون على يديه ، ومنساقبه جمعة ،
واحواله في الشجاعة مشهورة » ويقول المسعودى فى كتابه « مروج
الذهب » :

« والأشياء التى استحق بها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
الفضل هى السبق الى الايمان ، والهجرة ، والنصرة لرسول الله صلى الله
عليه وسلم والقربى منه ، والقناعة ، وبذل النفس ، والعلم بالكتاب
والتنزيل ، والجهد فى سبيل الله ، والورع والزهد ، والقضاء والحكم ،
والفقه ، وكان لعلى عليه السلام منها النصيب الأوفر والحظ الأكبر ، الى
ما ينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين آخى بين
اصحابه « انت اخى » وهو صلى الله عليه وسلم - لا ضده ولا ند -
وقوله صلوات الله عليه : « انت منى بمنزله هرون من موسى الا انه
لا نبى بعدى »

كان على بن ابي طالب رضى الله عنه - كما قال واصفوه - ربعة بين الرجال الى القصر اقرب ، أسمر اللون ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، ادعج (١) العينين عظيمها اذلف (٢) الأنف ، اصلع ليس في رأسه شعر الا من خلفه ، ناتئ الجبهة له صفاف (٣) كأنه اكليل ، وكان عنقه ابريق فضة ، كث اللحية طولها تملأ صدره لا يغير شيبه ، عريض المنكبين لهما مشاش (٤) كمشاش السبع الضاري ، ولا يبين عضده من ساعده قد ادمجت ادماجا ، عبل (٥) الذراعين ، شئن (٦) الكفين ، وكان كبير البطن ، يميل الى السمنة في غير افراط ، اقرب (٧) الظهر ، عريض الصدر كثير شعره ، ضخيم الكسور (٨) ، عظيم الكراديس (٩) غليظ العضلات ، ممشي (١٠) الساقين ، ضخيم عضلة الذراع ، دقيق مستدقها ، ضخيم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ينكأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبی ، واذا مشى الى الحرب هرول .

وقد نشأ رضى الله عنه ، قوى البنيان مكين التكوين ، وظل كذلك في شبابه وكهولته وفي شيخوخته ، فكان - كما قال واصفوه - قوى الساعد واليد قوة بالغة ، ما صارع احدا الا صرعه ، ولم يبارز احدا الا قتله ، اذا أمسك بذراع احده فكانه أمسك بنفسه فلا يستطيع ان يتنفس ، وقد يقتلع الفارس من ظهر جواده بيده ، ويرمى به الأرض غير جاهد ولا حافل فعل ذلك أيام « صفين » « بأحمر » مولى بنى أمية ، لما هم أن يضرب عليا بعد أن قتل « كيسان » مولاه ، فوضع على كرم الله وجهه يده في جيب درع ، « أحمر » وجذبه عن فرسه وحمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض

(١) الدمع : شدة سواد العين مع سعتها .

(٢) الدلف : قصر الأنف وصغره .

(٣) الصفاف : الطرة حول رأس الاصلع .

(٤) المشاش : رموس العظام كالمنكبين والرفقين والركبتين ، والمراد ان رموس عظام المنكبين منه كرؤوس عظام منكبى الاسد في الغلظ .

(٥) عبل الذراعين : ضخمتها .

(٦) شئن : غليظ

(٧) شديد

(٨) الامضاء

(٩) الكراديس جمع كردوس وهو كل عظمتين التقتا في مفصل .

(١٠) دقيقهما ..

فكسر منكبه وعصديه وأجهز عليه الحسين ومحمد بن الحنفية رضي الله
عهما . وهو الذي حمل بابا بخيبر ، عجز عن قلبه النفر من الأشداء ،
واتخذته ترسا حين سقط ترسه عند فتح حصن ناعم أحد حصون خيبر
المنيع .

روى الطبري عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم
برأيته : فلما دنا من الحصن خرج اليه اهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود
فطاح ترسه من يده ، فتناول علي رضي الله عنه بابا كان عند الحصن ،
فتترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده ، وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ،
ثم القاه من يده حين فرغ ، فقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم ، نجهد على
أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه . » .

وورد أنه جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها « الخندق » إلى
داخل أبنية الحصن . وكان أول ما عرف عن شجاعة علي رضي الله عنه ،
مبيتة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الهجرة ، وهو يعلم
ما تأتمر به قريش من قتل الراقد علي فراشه ، وإن فتية منهم يحاصرون
البيت ، ويترصدونه ، حتى إذا خرج يقتلونه ، فلم يشنه ذلك عن البيت ،
وفدائه الرسول بنفسه ، فضرب المثل الأعلى في التضحية والفداء . ثم أدرك
الرسول المدينة سالما على بركة الله ، وتتابع المسلمون إلى المدينة مهاجرين ،
فهاجر علي مع من هاجر من المسلمين ، ثم آخى الرسول بين المهاجرين
والأنصار وقال لعلي : أنت أخى في الدنيا والآخرة ، وأخى بينه وبين نفسه .
وقد ظل هذا الرباط الوثيق بين علي وابن عمه الرسول ، ثم ازداد
وثاقه بزواجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء .

ورد في فضله آيات كريمة ، واحاديث شريفة جمّة ، فقد نقل الواحدى في كتابه « أسباب التنزيل » ان الحسن والشعبي والقرطبي قالوا : ان عليا رضى الله عنه والعباس بن عبد المطلب وعثمان بن شيبة افتخروا فقال عثمان ابن شيبة : « اعطانى الله رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدانة يعنى مفاتيح الكعبة » وقال العباس بن عبد المطلب : اعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم السقاية ، وهى زمزم » قالوا : « ولم يعطك شيئا يا على . فانزل الله تعالى : « اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله لا يستوون عند الله (الى ان قال) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » .

ونقل الواحدى في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان مع على رضى الله عنه اربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدف بدرهم لبسلا ، وبدرهم نهارا ، وبدرهم سرا ، وبدرهم علانية فانزل الله تعالى : « الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خيف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقال الامام ابو اسحق الثعلبى في تفسيره ان سفيان بن عيينة سئل عن قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » فيمن نزلت ؟ فقال السائل : لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها احد قبلك . حدثنى أبى عن جعفر ابن محمد عن آبائه رضى الله عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد على رضى الله عنه وقال : — من كنت مولاه فعلى مولاه . .

فشاع ذلك في البلاد ، وبلغ الحرث بن النعمان الفهرى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقه له فأناخ راحلته ونزل عنها وقال : — يا محمد امرتنا عن الله عز وجل ان نشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله فقبلنا منك ، وامرتنا ان نصلى خمسا فقبلنا منك ، وامرتنا بالزكاة فقبلنا ، وامرتنا ان نصوم رمضان فقبلنا ، وامرتنا بالحج فقبلنا ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت ابن عمك تغضله علينا فقلت : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فهذا شئ منك ام من الله عز وجل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : —

والذى لا اله الا هو ان هذا من الله عز وجل .

تولى العرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول :
— اللهم ان كان ما يقول محمد حقاً فان علينا حجارة من السماء او
اثنتا بعذاب اليم .
فما وصل الى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته
فقتله .

فانزل الله تعالى :
« سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى
المعارج » .

واخرج مسلم عن على بن ابي طالب رضى الله عنه قال :
— « والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، انه لعهد النبى الامى انه
لا يحبني الا مؤمن ولا يبغضني الا منافق » .
واخرج الحاكم وصححه عن على قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه
وسلم الى اليمن . فقلت : يا رسول الله بعثتنى وانا شاب اقضى بينهم ولا
ادرى ما القضاء . ف ضرب صدرى ، ثم قال :
— اللهم اهد قلبه وثبت لسانه . فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء
بين اثنين بعد .

واخرج الطبرانى بسند حسن عن ام سلمة رضى الله عنها عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
— من احب علياً فقد احبني ، ومن احبني فقد احب الله . ومن ابغض
علياً فقد ابغضنى ومن ابغضنى فقد ابغض الله .

واخرج الطبرانى فى الأوسط عن ام سلمة رضى الله عنها قالت :
— سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : على مع القرآن ،
والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض .
وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « انا مدينة العلم ، وعلى بابها ، فمن اراد العلم فليأت به » .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان قتل جعفر بن ابي طالب
رضى الله عنه بمؤتة من ارض الشام — لا يبعث بعلى فى وجه من الوجوه
الا وهو يقول :

« رب لا تدرني فردا وانت خير الوارثين » .

وحمل على يوم أحد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم . فقال
جبريل عليه السلام :

— يا محمد ، ان هذه لهى المواساة .

فقال النبی صلى الله عليه وسلم :

— يا جبريل ان عليا منى .

قال جبريل عليه السلام :

— وانا منكم .

وقال عمار بن ياسر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
لعلى بن ابى طالب :

— يا على ، ان الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة احب
اليه منها :

الزهد فى الدنيا . فجعلك لا تنال من الدنيا شيئا ، ولا تنال الدنيا منك
شيئا ، ووهب لك حب المساكين . ورضوا بك اماما ، ورضيت بهم اتباعا ،
فطوبى لمن احبك ، وصدق فيك ، وويل لمن ابغضك وكذب عليك ، فأما
الذين احبوك . صدقوا فيك ، فهم جيرانك فى دارك ، ورفقاؤك فى قصرك ،
وأما الذين ابغضوك وكذبوا عليك ، فحق على الله ان يوقف الكذابين
يوم القيامة .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما ذات يوم ، أين علمك من علم على ابن
عمك ؟

فاجاب : كقطرة المطر الى البحر المحيط .

وكان على رضى الله عنه حجة المسلمين فى الفقه والتفسير والفتيا حتى
ان عمر بن الخطاب ، على جلاله قدره وعلمه ، كان يرجع اليه فيما يشكل
عليه من أمور الدين ، وقد قال : لا يفتين احد فى المسجد وعلى حاضر ، كما
قال رضى الله عنه : لولا على لهلك عمر .

وقال سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص لعبد الله بن عياش بن ابى
ربيعه :

— يا عم : لم كان ميل الناس الى على ؟

فأجاب :

- بابن أخى ، ان عليا كان له ما شئت من ضرر قاطع في العلم ، وكان له البسطة في العسيرة ، والقدم في الاسلام ، والصهر لرسول الله ، والفقه في السنة ، والنجدة في الحرب ، والجود بالماعون .

سأل معاوية بن ابي سفيان سعدا بن ابي وقاص :

- ما يمنعك ان تسب ابا تراب (١) « على رضى الله عنه » .

قال :

- اما ما ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله فلن أسبه ، لأن يكون لى واحدة منهن احب الى من حمر النعم ، سمعت رسول الله يقول لعلى ، وخلفه في بعض مغازيه .

فقال له على : يا رسول الله ، تخلفنى مع النساء والصبيان ؟

فقال له رسول الله : اما ترضى ان تكون منى بمنزلة هرون من موسى الا انه لا نبى بعدى .

وسمعه يقول يوم خبير : لاعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . قال : فتناولنا لها ، فقال : ادعوا لى عليا ، فاتاه وبه رمد ، فبصق في عينيه ، ودفع الراية اليه ، ففتح الله عليه .

ولما انزلت هذه الآية : « فقل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ... » آل عمران : ٦١ . دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا وقال ا « اللهم هؤلاء اهلى » .

(١) كنية كناه بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قصة معروفة رواها الامام البخارى ومى : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة الزهراء ، فلم يجد عليا في البيت ، فقال : أين ابن عمك ؟ قالت : كان بينى وبينه شيء ففاضينى ، فخرج فلم يقل عدى (من القيلولة) « فقال رسول الله لانسان : انظر اين هو ؟ فجاء فقال : يا رسول الله ، هو في المسجد راقدا ، فجاء الرسول وهو مضطجع قد رداؤه من شقه واصابه تراب ، فجعل الرسول يمسحه عنه ويقول : « قم ابا تراب » وقد كانت هذه الكنية احب الكنى اليه . ولكن اعداء الامام من بنى أمية كانوا يعمرون بها الامام على بن ابي طالب ، ويسبونه بها على المنابر ، ويجعلونها له نقيصة ووصمة ، فكانوا كسوه بها الحلى والحلل - كما يقول الحسن البصرى

تولى الامام على بن ابي طالب الحكم ، فلم تغير الخلافة ما اتصف به من البعد عن الهوى ، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ابتغاء وجه الله العزيز الحكيم ، وكان يلبس من اللباس أخشنه .

روى عن عبد الله بن ابي الهذيل قال :

« زایت علیا خرج وعليه قميص غليظ دارس ، اذا مد كم قميصه بلغ الظفر ، واذا أرسله صار الى نصف الساعد » .

وروى ابجر بن جرmoz عن أبيه قال :

« قال رأيت علیا بن ابي طالب يخرج من الكوفة وعليه فطرشان (نوع من البرود) متزرا بالواحدة مترديا بالآخرى ، وازاره الى نصف الساق ، وهو يطوف بالأسواق ، ومعه درة يأمرهم بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع والوفاء بالكيل والميزان » .

كان على رضى الله عنه يسوى بين الناس ، لا يحب ان يرى في بيت المال مالا الا انفق على الفقراء والمحتاجين .

روى انه اذا ورد عليه مال لم يبق منه شيء الا قسمه ، ولا يترك في بيت المال منه الا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك ، ويقول : يا دنيا غری غیری .

كان لا يفرق في العطاء بين عربى أو عجمى ، أو بين قريب أو بعيد . جاءه عقيل اخوه ، وقد لزمه دين يريد ان يسده عنه خليفة المسلمين ، القابض على بيت المال ، فأضافه على . ودعا بعشائه ، فاذا خبز وملح وبقل . فقال عقيل متسائلا عن الوليمة التى كان ينتظرها : ما هو الا ما ارى ؟

فاخبره على انه لا سبيل الى تغيير هذا الطعام

فقال عقيل : فتقضى دينى ؟

قال على : وكم دينك ؟

قال : اربعون الفا .

قال على : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فانه اربعة آلاف درهم فأدفعه اليك .

فقال عقيل : بيوت المال بيدك ، وانت تسوفنى بعطائك ؟

فقال على : تأمرنى ان ادفع اليك اموال المسلمين وقد ائتمنوني عليها !!

وقد شهد له معاوية بن ابي سفيان بهذه النزاهة النزيهة ، فقد حج معاوية بعد استشهاده على كرم الله وجهه فسأل عن امرأة يقال لها الدرامية الحجازية كانت من انصار الامام الشهيد ، فلما جاءت قال لها :

— اتدريين لم بعثت اليك ؟

اجابت :

— لا يعلم الغيب الا الله .

قال :

— بعثت اليك لاسألك علام اجبت عليا وابغضتنى ، وواليتى وعاديتنى ؟

قالت :

— او نعفينى ؟

قال :

— لا اعفيك .

قالت :

— اما اذا ابيت . فانى اجبت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وابغضتك على فقال من هو اولى منك بالأمر ، واطلبتك مالىس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له رسول الله من الولاء ، وحببه المساكين ، واعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال :

— ها ، أنت عليا ؟

— كيف رايته ؟

قالت :

— رايته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعممة التي

قال :

نسفتك .

قال :

— فهل لك حاجة تقضيها ؟

قالت :

— او تفعل اذ سألتك ؟

قال : نعم .

قالت :

— تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها .

— تصنعين بها ماذا ؟

— اغدو بألبانها الصغار ، واستحيى بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ،
واصلح بها بين العشائر .

— فان اعطيتك ذلك فهل احل عندك محل على بن ابي طالب .

— سبحان الله ! او دونه .

فأنشأ يقول :

اذا لم اعد بالحلم منى عليكم

فمن ذا الذي بعدى يؤمل للحلم ؟

خذيها هنيئاً واذكري فعل ما جد

جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان على حيا ما اعطاك منها شيئاً .

قالت : لا والله ولا يرة واحدة من مال المسلمين ! !

قال على عليه السلام : ان الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وان الآخرة قد
ارتحلت مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ؛ فكونوا من ابناء الآخرة ، ولا تكونوا

من ابناء الدنيا . الا ان الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الارض بساطا ، والتراب فراشا . والساء طبيا . الا من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن اشفق من النار رجع عن الحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ، الا ان الله عبادا كمن راي اهل الجنة فى الجنة مخلصين ، واهل النار فى النار معذبين : شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وانفسهم عفيفة ، وحوادثهم خفيفة . صبروا اباما قليلة لعقبى راحة طويلة . اما بالليل فصافوا اقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم ، يجأرون الى الله : ربنا ربنا ؛ يطلبون فكاك رقابهم ؛ واما بالنهار فحلما علماء ، بررة اتقياء ؛ كأنهم القداح ، ينظر اليهم الناظر فيقول : مرضى ! وما بالقوم مرضى ، ويقول : خولطوا ! وقد خالط القوم امر عظيم ! !

* * *

أوضح الإسلام طبيعة العلاقة بين الحاكم والشعب ، ووضع الأساس
المكين للدولة ديمقراطية روحية ، تمتزج فيها الفكرة الديمقراطية الحقسية
بالروح الديني ، وتقوم فلسفتها على أساس الاعتناء بوحداية الخالق ،
وبكرامة الانسان والمساواة الكاملة بين أفراد الشعب في الحقوق والواجبات .

وقد حدد الامام على بن ابي طالب مهمة الحاكم في الرسالة التي بعث
بها الى مالك بن الحارث الاشر حين ولاه مصر بانها : جباية خراجها ،
وجهاد عدوها ، واستصلاح اهلها ، وعمارة بلادها ، وامره بتقوى الله ،
وايثار طاعته ، واتباع ما امر به في كتابه ، من فرائضه ، وسننه التي
لا يسعد احد الا باتباعها ، ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها ، وان
ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فانه جل شأنه ، قد تكفل بمصر من
بصره ، واعزاز من اعزه .

وامره ان يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات (١) ، فان
النفس امارة بالسوء ، الا ما رحم الله .

ويفصل الامام ما اجمل ، فيبدأ برسم الخطوط الرئيسية لشخصية
الحاكم المسلم ، وسلوكه وفضائله بالناس ، يقول الامام لواليه :

« املك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فان الشح يسحق بالنفس
الانصاف منها فيما احبت او كرهت . واشعر قلبك الرحمة للرمية ،
والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكون عليهم سبعا ضاربا تفتنم اكلهم فانهم
صنفان : اما اخ لك في الدين ، او نظير لك في الخلق ، فأعظمهم من عفوك
وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فانك فوقهم ،
ووالى الامر عليك فوقك والله فوق من ولاك ! وقد استكفأك (٢) امرهم ،
وابتلاك بهم ، ولا تنصب نفسك لحرب الله (٣) فانه لا يد لك نعمة ، ولا
غنى بك عن عفوه ورحمته .

ولا تندم على عفوك ، ولا تبجحن - أى لا تفرح - بعقوبة ، ولا تسرعن

(١) يرعها : أى يكفها من مطامعها اذا جمحت عليه فلا تقاد الا لقائد العقل الصحيح
والشرع الصحيح .

(٢) استكفأك : طلب منك كفاية أمرهم والقيام بديبر مصالحهم .

(٣) أراد بحرب الله مخالفة شريعته بالظلم « ولا يد لك بئمة » أى ليس لك بد تدفع
نقمة - أى لا ملادة لك بها .

الى بادرة وجدت منها مندوحة . ولا تقول انى مؤمر - اى مساط - فاطاع
فان ذلك اوغال - افساد - فى القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير .

اياك ومسامة الله فى عظمتة ، والتشبه به فى جبروته ، فان الله يذل كل
جبار ، ويهين كل مختال .

انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة اهلك ومن لك فيه
هوى من رعيته .

وليكن احب الامور اليك وسطها فى الحق ، واعمها فى العدل واجمعها
لرضى الرعية ، وانما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للاعداء العامة
فى الامة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم .

وليكن بعد رعيته منك واشنائهم - ابغضهم - عندك اطلبهم لمعائب
الناس ، فان فى الناس عيوباً ، والوالى احق من سترها ، وأطلق من الناس
عقدة كل حقد ، ولا تعجلن الى تصديق ساع ، فان الساعى غاش وان تشبهه
بالناصحين .

ولا تدخن فى مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل - اى الاحسان
بالعدل - ، ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الامور ، ولا حريصاً يزين
لك الشدة بالجور ، فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى ، يجمعها
سوء الظن بالله !

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا
يكون لك بطانة فانهم اعوان الائمة واخوان الظلمة . وليكن اثر اعوانك عندك
اقولهم بمر الحق لك ، والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على
الا يطروك (١) ، ولا يبججوك (٢) بباطل لم تفعله ، فان كثرة الاطراء تحدث
الزهو وتدنى من العزة .

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، واعلم انه ليس شىء
بأوعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم ، وتخفيفه المؤنات
عليهم .

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدر هذه الامة ، ولا تحدث سنة
تضر بشىء من ماضى تلك السنة ، واكثر مدارس العلماء ، ومناقشة
الحكماء فى تشييت ما صلح عليه امر بلادك .

(١) رضهم : اى عودهم على ان لا يطروك - اى يزيدوا فى مدحك .

(٢) ولا يبججوك : اى يفرحوك بنسبة عمل عظيم اليك ولم تكن فعلته

بهذا يرسم الامام على بن ابي طالب صورة واضحة للحاكم الصالح في شخصه وما يجب عليه ان يكون موقفه من الشعب ، والصفات التي ينبغي أن يتطلبها في وزرائه ومستشاريه . ثم يوضح الامام بعد ذلك الفئات التي يتكون منها المجتمع ، وحق كل منها من عناية الحاكم ورعايته فيقول :

« واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة (١) . ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها اهل الجزية والخراج من اهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار واهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكل قد سمي الله له سهمه - اى نصيبه من الحق - ووضع على حده فريضة في كتابه او سنة نبية - صلى الله عليه وسلم - عهدا منه عندنا محفوظا .

ويفصل الامام على كرم الله وجهه ما اجمل في هذا التقسيم ، فيوضح الدور الذي تقوم به كل فئة من هذه الفئات في حياة المجتمع ، وما به صلاحها ، ويبين المزالق التي يمكن أن تنحرف اليها اى واحدة منها اذا هضمت حقوقها ، او اسيئت معالجة شئونها ، او اختير اقيادتها من لا يصلح لها ، او شعرت باختلال ميزان العدالة فيها

والامام في تصويره لاحوال هذه الفئات يصدر عن عقل راجع ، وبصيرة نافذة في احوال النفوس ، وفي علاقات الجماعات ، وتعرض...ها للصلاح والفساد ، فهو في توجيهه للوالى في امر القضاء يقول :

اختر للحكم بين الناس افضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تحكمه (٢) الحظوم ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصر - اى لا يضيق صدره - من الفء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون اقصاه وأوقفهم في الشبهات واخذهم بالحجج ، واقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، واصبرهم على كشف الامور ، واصبرهم عند انضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء .

ثم اكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في الليل ما يزيل عنته ، وتقل معه

(١) كتاب : جمع كتاب . والكتبه منهم عاملون للعامة كالحاسبين في المتباد لثئون العامة كالخراج والمظالم ، ومنهم مختصان بالمحاكم يفضى اليهم بأسراره ، وبوليهم النظر فيما يكتب لاوليائه وامداله ، وما يقرر في شئون حريه وسلمه مثلا .
(٢) امحكه : جعله محكان ، اى مسر الخلق ، او اغضبه .

حاجته الى الناس ، واعطه المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيرك من خاصتك
ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك .

فاذا ما جاء الى شئون التجار وذوى الصناعات اوصى بهم خيرا ، وبين
له الدور الإيجابى الذى يقومون به لخدمة المجتمع ، ثم حذره من انحراف
بعضهم فقال :

« ثم استوصى بالتجار وذوى الصناعات واوصى بهم خيرا : المفيد
والمضطرب (١) بماله والمترفق ببدنه ، فانهم مواد المنافع . »

واعلم .. مع ذلك - ان فى كثير منهم ضيقا فاحشا ، وشحسا قبيحا
واحتكارا المنافع ، وتحكما فى البياعات ، وذلك باب مضره للعامة ، وعيب
على الولاة ، فامنع فى الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم - منع
منه . وليكن البيع بيعا سمحا ، بموازين عدل ، واسعار لا تجحف بالفريقين
من البائع والمتاع - اى المشتري - فمن فارق حكره بعد نهيك اياه فنكل
به . وعاقبه فى غير اسراف » .

ويوجه الامام على عناية خاصة الى الطبقة المحدودة الدخل او العاجزة
عن الكسب فيقول :

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين
والمحتاجين من اهل البؤس والزمى (٢) فان فى هذه الطبقة قانعا - اى
سائل - ومعتزا - اى المتعرض للعطاء بلا سؤال - واحفظ الله ما استخفظك
من حقه عليهم واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلات صوافى
الاسلام - اى ارض الغنيمه - فى كل بلد ، فان للاقصى منهم مشكل الذى
للادنى ، وكل قد استرعت حقه .

فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصغر خدك لهم ، وتفقد امور من لا يصل
اليك منهم ممن تقتحمه العيون - اى تكره ان تنظر اليه احتقارا - وتحقره
الرجال ، ففرغ لاولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع ، فليرجع اليك
امورهم ، ثم اعمل فيهم بالاعداد الى الله يوم تلقاه ، فان هؤلاء من بين
الرعية احوج الى الانصاف من غيرهم ، وتعهد اهل اليتيم وذوى الرقة فى
السن - اى المتقدمون فيه - ممن لا حيلة له ، واجعل لذوى الحاجات منك

(١) المضطرب : المتردد بأمواله بين البلدان ، والمترفق : المكتسب .

(٢) الرمنى : جمع رمين ؛ وهو المصاب بالرمانة أى العاعة يريد ارباب العاهات المانعة
لهم عن الاكتساب .

قسما نفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك واعوانك من حراسك ، وشرفك حتى يكلمك متكلهم غير متنتع - اى غير خائف - فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن : « لن تقدس امة لا يؤخذ للضعف فيها حقه من القوى غير متنتع » .

ويتحدث الامام بعد ذلك الى عامله فى امور عامة ، تعين الحاكم على النجاح : منها ان يحرص على اصدار حاجات الناس يوم ورودها : وان يمضى لكل يوم عمله ، فان لكل يوم ما فيه ، وان يجعل لنفسه فيما بينه وبين الله افضل تلك المواقيت وان كانت كلها الله اذا صلحت النية وسلمت الرعية والا يطيل احتجاجه عن الرعية فان احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالامور ، وان يحول بين بطانته وخاصته وبين ما يحرفون اليه من استئثار وتناول وانصاف فى معاملته ، وان يظهر للرعية بقدره ان ظنت به حيفا ، والا يدفعن صلحا وعاه اليه عدوه ولله فيه رضا ، وان يحذر مع ذلك كل الحذر من عدوه بعد صلاحه . وان يحوط عهده بالوفاء ويرعى ذمته بالامانة ، وان يبرىء نفسه من الاعجاب بها ومن حب الاطراء وان يتحاشى المن على الرعية بالاحسان والعجلة بالامور قبل اوانها والتسقط - اى التهاون - فيها عند امكانها ، او اللجاجة فيها اذا تنكرت، او الوهن عنها اذا استوضحت » .

هذه الرسالة تترجم روح التعاليم الاسلامية فى الحكم والادارة الى دستور واضح محدد المعالم ، وتنبع من المعين الاول الذى فجرته آيات القرآن المجيد وسنة الرسول الكريم .

لما حضرت الوفاة الامام على بن ابي طالب اوصى ، فكانت وصيته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اوصى به على بن ابي طالب ، اوصى انه يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان مجمدا عبده ورسوله ، ارساله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وانا من المسلمين ؛ ثم اوصيك يا حسن وجميع ولدي واهلي بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فاني سمعت ابا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : « ان صلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام » . انظروا الى ذوى ارحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، الله الله في الأيتام ، فلا تعفوا افواههم ، ولا يفيض بحضرتكم . والله الله في جيرانكم ، فانهم وصية نبيكم صلى الله عليه وسلم ، مازال يوصى به حتى ظننا انه سيورثه ، والله الله في القرآن . فلا يستقنكم الى العمل به ، غيركم ، والله الله في الصلاة ، فانها عمود دينكم ، والله الله في بيت ربكم فلا تخلوه ما بقيتم ، فانه ان ترك لم ينسأظر . والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وانفسكم . والله الله في الزكاة ، فانها تطفئ غضب الرب ، والله الله في ذمة نبيكم ، فلا يظلمن بين اظهركم ، والله الله في اصحاب نبيكم ، فان رسول الله اوصى بهم ، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم ، والله الله فيما ملكت ايماكم . الصلاة الصلاة . لا تخافن في الله لومة لائم ، يكفيكم من ارادكم وبغى عليكم . وقولوا للناس حسنا كما امركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيؤلى الامر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم . وعليكم بالتواصل ، والتبادل ، واياكم والتدابير والتقاطع والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الانم والعدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب . حفظكم الله من اهل بيت ، وحفظ فيكم نبيكم ، استودعكم الله ، واقرا عليكم السلام ورحمة الله . »

لما استشهد على عليه السلام . - في شهر رمضان سنة اربعين من الهجرة - قام الحسن بن على رضى الله عنه خطيبا . فقال :

« لقد قتلتم الليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام

والله ما سبقه احد كان قبله ، ولا يدركه احد يكون بعده ، والله ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعثه في السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء الا ثمانمائة - او سسعمائة - ارصدها لخدمه !! » .

وحين علمت السيدة عائشة رضى الله عنها بموت على بن ابى طالب ذهبت الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فأخذت بعضادتى الباب وقالت :

« السلام عليك يا رسول الله .. انا ناعية اليك احبابك ، وذاكرة لك اكرم اودائك عليك ، قتل والله حبيبك المجتبى ، وصفيك المرتضى ، قتل والله من زوجته خير النساء ، قتل والله من آمن ووفى ، وانى لناوبة ثكلة ، وعليه باكية حراء .. » .

حسنة بن عبد المطلب

أسد الله وأسد رسوله

كان عبد المطلب بن هاشم من اشراف قريش ، ولكنه يمتاز عن قومه بالكثير من الوفاء وميل الى الدين ، يعظم ما كان قومه يعظمون من تلك الالهة ، ولكن عن اخلاص وصدق . وقد اتبعت له اشياء زادت امتيازاً عن قومه ، فهو قد احتقر بشر زمزم .

وهو لم يحتقرها من ذات نفسه ، وانما رأى في المنام من يأمره باحتقارها وحدد له مكانها ، فأقبل على صنع ما امر به حتى اتمه .

وقد وجد كنزا في اثناء احتقار البشر قبل ان يصل الى الماء فنازعته فيه قريش فجعله للكعبة ، ولم يأخذ هو ولا غيره منه شيئا . ثم انبعث الماء فنازعته فيه قريش ترى ان البشر لها ويرى هو انها له لانه احتقرها بيده وانبعث ماءؤها بجهد وكده .

وامعنت قريش في الخصومة ، حتى اجعوا رايهم على الاحتكام الى احد الكهان فافقدوا مع عبد المطلب وقد اخصمونه الى ذلك الكاهن ، غير انهم لم يحتسبوا الى هذا الاحتكام لان آية ظهرت لهم في الطريق اقنعهم ان عبد المطلب ليس كاذبا ولا متكلفا .

وفي اثناء هذه الخصومة شعر عبد المطلب انه وحيد ليس له من ولد ينصرونه فتذر لئن رزق عشرة منهم ليقربن احدهم الى الالهة .

وقد رزق عشرة من الولد ، فأراد ان يقرب احدهم ، وهم بذلك ولكن قريشا رفضت ذلك ، وما زالت به حتى اقنعت بان يقرع بين ابنه وبين عشرة من الابل فجعل كلما اقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الابل مائة فقربها الى الالهة ونجا ابنه ذاك الفتى عبد الله ، على ان عبد الله الذي افتداه أبوه بالابل فأغلى في الفداء لم يعمر طويلا ، وانما زوجه أبوه آمنة بنت وهب ثم أرسله للتجارة في الشام ، فذهب ولم يعد أدركه الموت يثرب في عودته وقد ولد له بعد موته صبي هو الذي اختار الله تعالى ليأبى الانسانية بدين الحق .

وقد توفي عبد الله وحمزة بن عبد المطلب في السادسة من عمره . فشب وهو يسمع من اهله اخبار اخيه الذي عصفت به يد المنون وهو في ريعان الشباب على صورة محزنة في يثرب بعيدا عن اهله وزوجه . فلما بلغ حمزة مبلغ الإدراك كان من ارق الناس لابن اخيه اليتيم ، وكان يؤثره بالحب

والمودة لما رأى منه كرم خلق ، وصفاء نفس ، وتقاء قلب ، فجمع الله بين قلوبهما برباط قوى متين .

كان حمزة بن عبد المطلب يكبر محمدا بأربع سنوات ، فلم تكن الصلة بينهما صلة العم بابن أخيه بل صلة الصديق بالصديق . وقد ترعرعا معا ، وكان الهمما مشتركا لما مات عبد المطلب . فقد ذاق حمزة مرارة أول يتم ، أما محمد فقد تجرع في صمت مرارة الألم للمرة الثانية ، فيتمه بعد عبد المطلب كان أقسى من يتمه بعد أمه . وقد جمع اليتيم بين قلوبهما . وقد انصرف محمد منذ السن الباكورة الى ما هيأه الله له من الزعى والتجارة ، في حين انصرف حمزة الى تلقى العلم ليكون سيّدا من سادات بنى هاشم ، وقد كان جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة .

كان محمد بصطفى حمزة ، ويفضى اليه بذات نفسه قبل أن ينزل عليه الوحي ويبعثه الله نبيا للعالمين . ولما عرضت السيدة خديجة بنت خويلد نفسها على محمد ليتزوجها ، كان حمزة أول أهله سعيا في اتمام هذا الزواج ولما كانت خديجة تفوق نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كان كل قومها حريصا على الزواج منها او يقدر عليه . قد سر ذلك حمزة ، وشرع يعين محمدا عليه ، فخرج معه حتى دخل على عمها عمرو بن اسد فخطبها اليه وظل بعد ذلك صديقا له وصفيّا لا يكاد محمد يفعل شيئا حتى يحدث فيه حمزة . ومضت الأيام في طريق الزمن ونزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء ، يأمره بالدعوة في الاسلام . وقام محمد رسول الهدى بأداء الرسالة ، يدعو الناس الى نبذ عبادة الاوثان ، والايمان بالله الواحد القهار ، يلقي الاثرا ونكرا من الدين ران على قلوبهم وغشيت ابصارهم عن الحق . ولكنه مضى في الدعوة الى الدين الجديد لم يهن ولم يضعف . وبينما كان الرسول الأعظم يعمل جاهدا على نشر الدعوة ، ويتعرض للاذى ، كان حمزة سادرا في لهوه البريء من الصيد .

كان محمد صلى الله عليه وسلم يتخذ لنفسه بين الحين والحين مجلسا عند الصفا يدعو الناس فيه الى دين الحق ، ويجادلهم بالتى هى احسن ، فاذا لم يجتمع اليه لجد انفرد بنفسه يتأمل فى خلق السموات والأرض ، ويفكر فى شأنه . وبينما هو جالس ذات يوم مر به أبو جهل ، فراح يسب من سفه ! حلامهم وعاب دينهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبد الله بن جدعان تسمع وتنظر .

وانصرف أبو جهل الى نادى قريش وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن ينبس بكلمة .

وظلت مولاة عبد الله بن جدعان تسرح الطرف فيما حولها ، حتى اذا ما رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه راجعا من قنصه متجها الى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود الى اهله ، تاهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبى جهل ومحمد بن عبد الله .

ومر عليها حمزة فقالت له :

— يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فسار حمزة نحو الحرم وهو حائق . وما كاد يقطع فى الطربق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

— ان أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرما !!

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا فى القوم ، فاقبل نحوه حتى قام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرا ، ثم قال :

— أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك ان استطعت . فقال أبو جهل :

— سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا .

فالتفت حمزة الى القوم وقال فى حدة :

— ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فقامت رجال من بنى مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا :
— ما نراك الا قد صبات !

— وما يمنعني وقد استبان لي منه . . أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقول حق ، والله لا أنزع فامنعوني ان كنتم صادقين .
فقال لهم أبو جهل :

— دعوا أبا عماره ، فاني والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً قبيحاً .
ورجع حمزة الى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين أبي جهل ، انه ثار لابن أخيه وأعلن اسلامه في نوبة من نوبات غضبه ، فراح الشيطان يوسوس له :

— « أنت سيد قريش ، اتبعت هذا الصابيء وتركت دين آبائك . الموت خير لك مما صنعت » . واستشعر الرجل الشجاع الذي لا يخشى الردى خوفاً يلفه وحيرة تكتنفه ، وحاول أن ينام ولكن لم يطف الكرى بعينه ، انه في قلقه وأرقه ، وفي جوف الليل ، راح يبتهل الى الله في حرارة :

— اللهم ان كان راشداً فاجعل تصديقه في قلبي ، والا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً .

وراح حمزة يفتدو ويروح في الغرفة يحاول أن يستفتي قلبه مرة ، ويصيح سمعه الى همزات الشيطان مرة . وابتهل الى الله مرات أن يدركه برحمته ويلقى في عين بصيرته نوراً يرى به الصراط المستقيم . انه أقر على الملائكة بوحداية الله ورسالة ابن أخيه . وقد كان اعلاناً حركته عصبية لأبي القاسم أخيه في الرضاعة ، وابن أخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، الا انه لما خلا بنفسه قامت هواجسه تهاجمه في قسوة . وعنف ، وراح ينقب عن جوهر الحقيقة ، فما كان يحب أن يخدع نفسه ، أو أن يكون منافقاً في عين ذاته ، انه يبغى الحق ولا شيء غير الحق .

وبات حمزة بليلة لم يبت بمثلها ، راح فيها يستعرض حياة ابن أخيه فلم يجد فيها مثلباً ، فهو الأمين الذي لم يجرب عليه الكذب قط ، انه لم يكذب على الناس أو يكذب على ربه ؟

انه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى في وجهه ، قد أوتى الحكمة . قد خرج من سلطان نفسه فلا يغضب لها بل يغضب للحق . انها صفات لا تجتمع الا في انسان يعد لرسالة عظمى ، وان ابن عبد الله كفاء لحمل اعظم رسالة .

ولما اسفر الصباح غدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

— يا بن أخي انى قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه ، واقامة مثلى على ما لا أدري أرشد هو أو غى شديد

وقص على ابن أخيه قصته ، فراح محمد صلى الله عليه وسلم يذكره ويعظه ويخوفه ويبشره ويتلو عليه القرآن . وحمزة مأخوذ بما يسمع يستشعر كأن أسجافا ترتفع عن قلبه وأن نورا يشرق في عين ذاته وأن حديث رسول الهدى يرتفع به عن عالمه المحدود الى عوالم من الرفة والسمو والنور .

والتقى الله في قلبه الايمان فقال في فرح :

— أشهد أنك لصادق ، فأظهر يا بن أخي دينك .

وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلام فارس قريش سرورا عظيما ، فقد أعز الله الاسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحس أن آلام الاضطهاد الذى تحمله سنوات طويلة قد اثمرت خير ثمرة . فبات يرحب بكل عذاب وشدة وهو على ثقة من أن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون .

وانزل الله تعالى فيما كان من حمزة رضى الله عنه وأبى جهل :

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك نبين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون . واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نأتى مثل ما أتى رسول الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »

كان اسلام حمزة بداية عهد جديد في تاريخ الدعوة الاسلامية ، فقد بدأت قلوب بنى عبد المطلب ترنو الى محمد وتطالع بقية قريش العداوة . ولم يشد عن اجماعها في تأييد محمد ونصرته الا ابو لهب بن عبد العزى ، وكان خامل التفكير ، ضيق الصدر وكان يقول : يعدنى محمد أشياء لا اراها . يزعم انها كائنة بعد الموت . فماذا وضع فى يدي بعد ذلك ؟ ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبأ لكما ما ارى فيكما شيئاً مما يقول محمد ! وكان يجد نفسه سعيداً اذ تؤكد له امرأة مثل هند بنت عتبة انه نصر اللات والعزى بهذا الجهل المطبق .

وبدأ الخوف يسرى فى قلب قريش لهذا الموقف الذى يقفه بنو عبد المطلب منها بعد اسلام حمزة ، وأخذت سادات قريش يتمثلون الخطر الزاحف من جراء هذا الانفصال ، ولم يعد فى امكانهم أن يستصغروا أمر محمد أو يمدوا عليه بالسخرية والمهانة كما كانوا يفعلون ، لانهم أصبحوا يخشون غضب حمزة وامثاله من الرجال الصناديد الذين حفلت بهم الدعوة الاسلامية .

وأوفدوا له عتبة بن ربيعة ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم :
- يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به احلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم وكفرت به من مضى من آياتهم . فاسمع منى أعرض عليك امورا تنظر منها لعلك تقبل منها بعضها .
فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :
- قل يا ابا الوليد اسمع .
قال :

- يا ابن أخى ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا تقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رثيا (١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبدلنا فيه اموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع (٢) على الرجل حتى يمدارى منه .

(١) الرثى : ما يتراءى للانسان من الجنى .

(٢) التابع : من يتبع من الجنى

حتى اذا فرع عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

— اقد فرغت يا ابا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منى

قال : افعل

فقال الرسول :

— « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب
فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض، أكثرهم فهم
لا يسمعون وقاوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه (١) . . ثم مضى الرسول
الكريم فيها يقرأها عليه . فلما سمعها منه عتبة انصت لها وألقى يديه
خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ، ثم انتهى الرسول الكريم الى السجدة
منها فسجد . ثم قال :

— قد سمعت يا ابا الوليد ما سمعت ، فانت وذاك .

فقام عتبة الى اصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله لقد جاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس اليهم قالوا :

— ما وراءك يا ابا الوليد !

قال :

— ورائى اتى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو
بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، اطيعونى واجعلوها بى،
وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذى
سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر
على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم اسعد الناس به .

قالوا :

— سحرك والله يا ابا الوليد بلسانه .

(١) سورة فصلت .

قال :

- هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

أخذ الاسلام ينتشر بمكة في قبائل قريش من الرجال والنساء . كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجة سعيد بن زيد قد أسلمت ، وأسلم بعدها سعيد بن زيد وهما مستخفيان باسلامهما عن عمر بن الخطاب . وعرف عمر ان اخته وزوجها قد اسلما فذهب الى بيتهما ، وحين اقترب من البيت سمع خباب بن الارت يقرأ القرآن ، فلما دخل عمر قال :

- ماذا اسمع ؟

قالا له : ما سمعت شيئا .

قال : بلى والله لقد أخبرت انكما تابعتما محمدا على دينه .

ويطش بزواج اخته سعيد بن زيد ، فقامت اليه اخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضرها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له اخته وزوجها :

- نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما تريد .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لاخته :

- اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتمكم تقرأون آتفا ، انظر ما هذا الذي جاء به محمد ، فلما قرأ عمر صدرا من سورة طه ، قال :

- ما أحسن هذا الكلام واكمه .

فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له :

- يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » فالله الله يا عمر .

فقال له عمر :

- دلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم ،

فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب الرسول فنظر من ثقب الباب فرآه متوشحا سيفه ، فرجع الى الرسول وهو فزع خائف ، فقال :

— يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب :

— فاذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال الرسول :

— ائذن له .

فاذن له الرجل ، ونهض الرسول حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ يجمع ثوبه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال :

— ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما ارى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال له عمر :

— يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله . فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول ان عمر قد اسلم ، ففترق أصحاب الرسول من مكانهم . وقد عزوا في انفسهم حين اسلم عمر مع اسلام حمزة وعرفوا انهما سيمنعان الرسول ، وينتصفون بهما من عدوهم .

ولكن بنو عبد الدار لم يكن يرضيهم هذا ، اذ كانوا سادة - قريش ، يحسدون بنى عبد المطلب على ما عسى أن يكون لهم من المكانة الرفيعة بهذا الرجل الذى نبغ فيهم وكانوا اذكىاء لا يكاد يفوتهم صدق ما يدعو اليه محمد وخطره ، فأخذوا يجمعون صفوفهم ، ويثيرون من استطاعوا من بطون قريش ، ومضوا يجادلون محمدا يريدون أن يصرفوا الناس عنه بالمنطق كما كسبهم الى دعوته بالمنطق فلم يفلحوا ، وزاد الاسلام انتشارا ، ثم كان اسلام عمر بن الخطاب وما اعقبه من اشتداد اذى قريش للمسلمين ، فكان حمزة وعمر درعى الرسول يردان عنه الباغي .

مضى على الاسلام أربعة عشر عاما والرسول الأعظم في مكة بين أعداء

الحق ، ومعه على بن ابي طالب وابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحمزة بين عبد المطلب . واما باقى الصحابة فقد تركوا درياهم وعشيرتهم وهاجروا الى الحبشة او المدينة حيث الامن والهدوء . وكان الموقف حرجا ، فأعداء الحياة الجديدة الطاهرة التى يدعو اليها محمد يتآمرون على الرسول ، وطلب ابو بكر من الرسول الخروج الى المدينة فأجابه الرسول بأن الله لم يأمر بذلك بعد . واجتمع المتآمرون فى دار الندوة للتشاور فيما يصنعونه بمحمد رسول الهدى ، فاقترح بعضهم أن يحبس فى الحديد ، وان يفلقوا عليه بابا ثم يربصون به ما اصاب الشعراء الذين كانوا قبله ، ولكن هذا الراى لم يلق سمعا ، فقال آخر : نخرجه من بين اظهرنا وننفية من بلادنا ، ثم لا نبالى بعد ذلك من امره شيئا ، ولكنهم خافوا ان يلحق بالمدينة ، فيحرض اهلها عليهم ، بما له من قوة الاقتناع ، فيقصدهم ويبيطشوا بهم . واقترح ابو جهل ان يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا ، وان يعطوا كل فتى سيفا بئارا ، فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضون بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وفرق قبائلها شيئا ، فاستقر رأيهم على هذا الاقتراح بالاجماع .

وبينما كانت قريش تأتمر بالرسول الأعظم ، نزل عليه الوحى ، واخبره بما يدبر نه وامره ألا ينام فى فراشه تلك الليلة . فأرسل الى على بن ابي طالب كرم الله وجهه وأسر اليه أن ينام فى فراشه . وامره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ثم يلحق به .

وفى المدينة المنورة آخى محمد رسول الهدى بين حمزة بن عبد المطلب وبين مولاة زيد ، فكان حمزة فخورا بأخيه هذا ، وكان هذا آية من آيات الاسلام ، الذى يقرر ان الناس سواسية كأسنان المشط . ولو قد تطلع مولى الى اخوة حمزة فى الجاهلية لعد حمزة ذلك مهانة لا يكاد يمحوها دم ، ولكن الاسلام نور . والنور اذا ملأ القلوب أزال نوازع الجهل والعصبيّة جميعا .

استقر أمر الرسول في المدينة ، وآتاه الله من عون أهلها ونصر من هاجر إليها من أهل مكة ما مكنه من السير بحكومتها وأهلها في الطريق السوى ، حتى إذا استقر أمر الاسلام ، واطمأن الرسول على المؤمنين ، وجد الفرصة سانحة ليبدأ مع قريش ذلك الصراع العنيف الذي انتهى بنصر الاسلام وانتشاره في الجزيرة العربية كلها .

وهنا أتاحت الفرصة لحمزة بن عبد المطلب للعمل . وكان حمزة فارسا شجاعا لا يرهب القتال ، ومباريا قويا . وكان قد لبث ينتظر الفرصة المواتية طوال فترة الدعوة السلمية الماضية ، فلما آن الأوان للاسلام لينتقل الى دور جديد ، دور الكفاح الايجابي حان الوقت ليفيد من حمزة .

وكان الرسول الأعظم يعرف من هم رجاله ، وما هي الملكات التي يتمتعون بها ، ولذلك عهد الى حمزة قيادة أول سرية اسلامية ، فكان حمزة بهذا أول قائد مسلم ، وأول سلسلة طويلة من القادة العظام الذين حملوا لواء الاسلام جيلا بعد جيل ، ومضوا بالعقيدة الكريمة موفقة منصوره في مشارق الأرض ومغاربها .

عقد الرسول أول راية في الاسلام لفارس قريش حمزة بن عبد المطلب ، وأمره على ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عمرا لقريش عائدة من الشام . وكان الرسول يهدف من هذه « الدورية » المسلحة التي عرفت باسم « السرية » مجرد الاستطلاع وأشعار قريش بقوة المسلمين وتأهبهم لنضال خصومهم . وكان الرسول يتوقع أن يدفعهم حرصهم على أموالهم الى أن يفهموا أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع أهلهم الذين هاجروا الى المدينة تفاهما يقي الطرفين شر العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة الى الاسلام والحج الى البيت العتيق ويضمن لأهل مكة في نفس الوقت سلامة تجارتهم وأموالهم في طريقها الى الشام .

بعث الرسول حمزة في هذه السرية ليلقي رأس المعاندين أبا جهل بن هشام عند العيص من شاطئ البحر لعل أبا جهل يرتدع عن غبه ، ويكف عن هذا السفه الذي كان لا يزال يلقي به المسلمين قبل الهجرة ، وهذه القسوة التي يعامل بها من بقى منهم في مكة بعد هجرة الرسول الى المدينة ومما لا شك فيه أن الرسول لم يكلف حمزة القتال ، ولو أمره به لقاتل فلم يكن حمزة بالذي يخشى ثلاثمائة قرشي أيا كان العدد الذي معه قليلا ، اكتفى بارهاب أبي جهل وقريش معه . وقبل وساطة مجدي بن عمر الجهنى وعاد الى المدينة .

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم داعية حرب ، بل كان داعية سلام .
كانت دعوة الرسول سلمية رفيقة لأنها حق ، وللحق مع هدوئه صولة
تبدو مشرقة رحيمة ولكنها لقيت خصومة باطلة عنيدة .

وبدا الصراع بين الحق والباطل .. بين الهدى والضلالة .

ومضت قريش في اضطهادها للمسلمين ، فوقفت عقبة في سبيل نشر
الدين ، ومنع المسلمين من الدخول الى مكة لأداء فرائض حجهم ، لذلك
فكر الرسول في القيام بعمل إيجابي ضد مصالح قريش حتى تشعر بقوة
المسلمين وتدرتهم على أن يحققوا بها الضرر لعل هذا العمل يكشف العصائب
عن عيون قريش ، فترجع عن غيها ، ويدفعها الى محاولة التفاهم مع
المسلمين . وكانت بداية الصراع خروج الرسول الأعظم لاعتراض قافلة
كبيرة على رأسها أبو سفيان وهي في طريقها الى الشام ، ولكن الرسول لم
يتمكن من ادراكها فأعد العدة للملاقاتها في أثناء عودتها . وحتى لا تغفلت
القافلة عند عودتها ارسل الرسول طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد
لاستطلاع أمرها ، فنزلا عند قبيلة جهينة بالحوراء وما كادت القافلة تمر
بها حتى أسرعوا الى الرسول الكريم ليفضيا اليه بخبر القافلة .

وكان خبر خروج الرسول لاعتراض القافلة في رحلتها الى الشام قد
انتشر بين الناس ، ووصل هذا الخبر الى أبي سفيان بن حرب وهو يقترب
بقافلته في طريق الحجاز ، وحذره بعض الأعراب من احتمال المفاجأة عند
بدر ، ولذلك عزم على طلب النجدة من أهل مكة . فبعث ضمضم بن عمرو
الغفاري الى مكة ليستنفر قريشا ويخبرها بالخطر الذي يهدد قافلته .

وقد أبلغ ضمضم هذا الخبر الى قريش بطريقة مثيرة ألهمت مشاعر
الناس ، اذ قطع أذنى بعيره ، وجدع أنفه ، ودخل الى مكة وقد شق
قميصه وأخذ يصيح :

— يا معشر قريش . اللطيمة ! اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد
عرض لها محمد في أصحابه لا أدري أن تدركوها أولا . الفوث . الفوث .

وانتهز أبو جهل هذه الفرصة لاستنفاد قريش لقتال المسلمين ، فمضى
يخطب الناس عند الكعبة ويصيح في جموعهم كي يخرجوا لانتقاد قافلته
وتتقدم المسلمون من موقعهم بوادي زفران في طريقهم الى بدر ، وكانت

الأنبياء قد وصلتهم باقتراب قافلة أبي سفيان ، فلما وصلوا بدرا ، كانت القافلة قد فاتتهم ولم يعد هناك مناص من قتال جيش قريش . وارسل أبو سفيان إلى قائد جيش قريش يقول له :

« انكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم واموالكم فقد نجاها الله فأرجعوا » .

ولقى هذا الرأي استجابة لدى كثير من رجال قريش ، ولكن أبا جهل ما كاد يسمع هذا القول حتى ثار ، ومار في قلبه الحقد الأسود الذي يكنه للرسول فصاح :

— والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا ننحر الجذور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزأون يهابونا أبدا بعدها .

وثار الخلاف بين رجال الجيش ، فريق يحبذ الرجوع الى مكة بعد نجا القافلة ، وفريق آخر يرى أنه لا بد من القتال . وانتهى الخلاف بعودة بنى زهرة فقط الى مكة وتحرك جيش قريش الى بدر . . .

وعلى اثر قدوم المسلمين الى بدر تقدم الرسول صوب الماء ، حتى اذا جاء ادنى مكان منه نزل فقال الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله اهذا منزل انزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه او نتأخره ؟ أم هو الراى والحرب والمكيدة ؟

فأجاب الرسول :

— بل هو الراى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب :

— يا رسول الله ، ان هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نفور ما وراءه من القلب ثم نبني حوضا ونملأه ماء فنشرب ولا يشربون ثم نقاتلهم .

ونفذ الرسول فكرة الحباب حين اتضح له صواب رايه .

خرج الاسود بن عبد الأسد المخزومي من صفوف المشركين . وقال يسخر من المسلمين :

— أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه .

وكان الحوض من وراء المسلمين ، يحسب ان احدا منهم ان يجروا على الوقوف في طريقه ، وانه يخترق صفوفهم آمنا أو كالأمن . فما هو الا ان برز من الصفوف حتى تقدم له فارس الاسلام حمزة بن عبد المطلب وضربه بالسيف ضربة قطعت ساقه ، فوقع على الأرض تقطر ساقه دما ، وبلغ به العتو ان اراد الزحف برغم ذلك حتى يصل الى الحوض ليهدمه ، فلم يمهله حمزة رضى الله عنه واجهز عليه . كل ذلك ورجال قريش ينظرون في ذهول الى هذا الرجل الشجاع حمزة ، الذى يقف كالأسد ، يدافع عن عقيدته في بطولة فذة . وبدا رجال قريش يفهمون ان الأمر جد لا هزل فيه . وان معركة رهيبة على وشك ان تقوم ، وليست المسألة نزهة جميلة يشرب فيها الخمر وتعزف القيان .

وخرج عتبة بن ربيعة سيد قريش واخوه شيبة وابنه الوليد ، يتحدثون المسلمين ليبرزوا لهم من يجروا على الخروج من رجالهم . فأراد بعض الأنصار الخروج لهم ، فرفضوا مبارزتهم في شيء من الصلف ، وابوا ان يبارزوا الا قريشيين . فندب الرسول عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن ابي طالب فبرزوا لهم .

ومشى عبيدة وكان اسن الثلاثة الى عتبة ، واتجه حمزة الى شيبة ، وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الابصار وقد حبست الانفاس ، فالجولة الاولى كانت بين ابناء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى هاشم . وغدت الدعوات ترفرف على شفاه المهاجرين والأنصار بعد ان ابتهلت بها الأفئدة التى عمرت بأنوار اليقين . فلو قتل عبيدة وحمزة وعلى في أول لقاء لكانت فاجعة الرسول فيهم تعز عن العزاء .

وكان أبو بكر الصديق ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينما كان عمر ابن الخطاب يختلس النظرات الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرصد القتال فيستشعر ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجدانه أن ينتصر رجال بنى هاشم ليسعد عليه الصلاة والسلام بنصر المسلمين ونجاة الأحياب .

ولم يمهل فارس قريش حمزة ان قتل شيبة فاشرقت وجوه المسلمين بالأمل وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على بن ابي طالب الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما اثبت صاحبه ، ووقعت الضربة في ركة عبيدة فأصاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال حمزة وعلى الى عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه الى اصحابه فأضجعوه

الى جانب موقعه فأفرشه رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه ، فوضع
خده عليها وقال ارسول الله صلى الله عليه وسلم :

— الست شهيدا يا رسول الله ؟

— اشهد انك لشهيد .

ودارت معركة رهيبة وتهاوت السيوف ، وهجم المسلمون هجمة المؤمن
الصادق لا يكاد شيء يرده عن سبيله . وخرج الرسول الى الناس فحرضهم
على القتال فقال :

— والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا
محتسبا ، مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة .

وكان حمزة بن عبد المطلب قد علم نفسه بريشة نعامة تبتها في صدره ،
فكان طوال المعركة كالاسد الضاري لا يكاد يثبت في مكان ، لا يرى واحدا
من كبار المشركين الا انقض عليه انقضا الصاعقة واجهر عليه ، ولا يرى
واحدا من اخوانه المسلمين الا خف لنجدته واعانه على عدوه ، حتى روع
المشركين بنجدته واوقع الرعب في قلوبهم .

روى عبد الرحمن بن عوف انه أسر امية بن الخلف وابنه واقتادهما الى
صفوف المسلمين ، وانه لسائر بينهما اذ سآله امية :

— من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره ؟
فقال عبد الرحمن :

— ذلك حمزة بن عبد المطلب .

فقال امية :

— ذلك الذي فعل بنا الافاعيل .

أسفرت معركة بدر عن انتصار رائع للمسلمين ، نصر دخل به الاسلام
في دور التوسع . وانصرف من بقى من المشركين الى مكة وهم يشعرون ان
يوم قريش قد دنا وان جماعة فيها اسود من طراز حمزة بن عبد المطلب ،
وعلى بن ابي طالب لن تغلب على امرها ابدا .

مضت قريش تسنعد ليوم تبلغ فيه ثارها ، وجعل رجالها يمشون الى بعض يدبرون لهذا الأمر عدته . وجمعوا اموالا هائلة حتى لم يعد احد منهم رجلا كان او امرأة - الا ساهم في العدة بنفسه او بماله . وخرج رجالهم وكماتهم وخلفهم الطغائن يشدون ازهرهم ويحرضونهم على القتال ثارا لمن لقي مجرعه في معركة بدر من بعولتهن أو ابنائهن أو اخواتهن . وكانت هند بنت عتبة انسء قريش دعوة لهذا الثار . اذ لقي ابوها واخوها مصارعهم في بدر . وكان قلبها يبور بالحق على حمزة . . بطل بدر والذي فعل بقريش ورجالها الافاعيل .

وكانت موقعة احد وما حدث فيها من مخالفة رماة المسلمين لما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم من خطة للمعركة ، كانوا خمسين رجلا يرمون النبل يقودهم عبد الله بن جبير وضعهم الرسول في مخرم من مخارم جبل احد ليحموا ظهور المسلمين من ان يفاجئهم المشركون من الخلف ، ثم التقى الجمعان وابدى كماء المسلمين من الشجاعة ما يفوق الوصف ، وكان حمزة سيفا من سيوف الله لا يلقى مشركا الا صرعه .

وراحت هند بنت عتبة والنسوة اللائي معها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويقتلن :

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
مشى القطا النوازي (١)
والمسك في المفارق
والدر في المخانق
ان تقبلوا نمانق
وتفرش النمارق
او تدبروا نفارق
فراق غير وامق

ووقف وحشى مولى جبير بن مطعم خلف شجرة وفي يده حربته يرصد مركات حمزة بن عبد المطلب وصوت ابن مطعم يداعب خياله :

— ان قتلت حمزة عم محمد بمى فانت عتيق .

(١) الخفاف .

انها رمية من حريته تستقر في قلب حمزة ثم يسرد بعدها حربه .
فراح يتبع حمزة بعينيه في كره وفره ، انه يحصد الناس بسيفه ويهزم
اليهم كالأسد قد كثر عن أنيابه ، فينقض على فريسته وان هي الا ضربته
واحدة فيتركه كأمس الدابر وهو يقول :

— انا اسد الله ، انا ابن عبد المطلب .

وضرب حمزة رجلا ضربة أطاحت برأسه ، فانكمش وحشى وهو في
مكمنه ، فحمزة قتل ثلاثين من قريش وحده ، واو التفت ناحية السجود
وخطر له ان يتربص به لانقض عليه انقضاض الصاعقة وقتله قبل ان يسمع
بحسريته .

وهز وحشى الحربة في يده وصوبها الى حمزة ، وقبل ان يطلقها كان
حمزة قد التفت الى سباع بن عبد العزى فقال له :

— أقبل يا بن مقطعة البظور .

كانت امه ام انمار مولا شريق والد الأخنس ختانة مكة : وكان سباع
يعادى الله ورسوله وكان من المكذبين ، فشد حمزة عليه ورفع سيفه وهوى
به فاذا بسباع في مثل لمح البصر يسقط على الأرض وقد سالت دماؤه بالفظ
آخر الأنفاس .

وتفاصرت نفس وحشى فقد كان سباع تمام واحد وتلاتين قتلهم حمزة ،
انه يقاتل بين يدي رسول الهدى بسيفين ويقول : انا اسد الله .

وملا الخوف قلب وحشى وبات يخشى أن تنتهى المعركة بهزيمة قريش
دون ان ينال من حمزة فيظل يرسف في أغلال العبودية ، فجعل يرصد في
غذواته وروحانه بين صفوف المشركين لعل فرصة تسنح له فيقتل فيها
حمزة ويسترد حريته .

وكر فرسان قريش على المسلمين فاذا بالنبال تتطاير من الرماة الذين
اسندوا ظهورهم الى جبل احد لتستقر في أعين الخيل او في رقاب الفرسان
وصدورهم ، فانجفل الفرسان مرتدين ليتفرقوا في الوادى ليصبحوا هدفا
لأسياف حمزة وعلى والزبير وابى دجانة وصناديد المسلمين .

وارتفعت الاصوات تجلجل عند احد ، المسلمون يهتفون :

— امت ... امت .

وقد استبشروا بنصر الله ، والمشركون يهتفون :

- يا لعزى ! يا لهبل ! !

والنسوة من قريش يحمنن الرجال بالدفوف ، واقبل حمزة بن عبد
المطلب وقد نهر سيفيه ليقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويقول :

- انا اسد الله .

فبينما هو كذلك اذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشف الدرع عن
بطنه ، فلاح لوحشى الفرصة التى كان يرصدها منذ نشب القتال فى بطن
احد ، فهز حربيته دفعا عليه فاذا بها تنفلذ من تحت سرته لتخرج من بين
رجليه .

وندت عن حمزة صرخة مكتومة ونظر فرأى وحشى خلف الشجرة فتحمل
نفسه حملا لينطلق اليه يريد ان يقتل ذلك العبد الحبشى الذى غدر به ،
ولكنه عجز عن مواصلة السير فوقع على الارض وهو يلثث .

ورفع راسه لينظر فاذا بجبل احد يدور فى الفضاء . واذا بالمدينة
البيعة يطبق عليها الظلام ، واذا بأصوات المسلمين التى
كانت تدوى كالرعد .. امت .. امت .. تخفت ولم يعد يرى بعينيه ولكنه
كان يرى ببصيرته اول يوم اعلن فيه اسلامه ، يوم ان ذهب الى ابي جهل
وشجه بقوسه وهو فى مجلسه عند الكعبة لما سمع ان ابا جهل قد اساء
الى ابن ابيه . وكان يرى صناديد قريش يوم بدر لما كانوا يتهاوون جيشا
هامة تحت ضربات سيفه البتار ، وغاب عن الدنيا بينما كانت اصوات
عذبة تنسحب فى اذنيه تبشره بجنان عرضها السموات والارض ، فاذا
باساريره تنبسط واذا بروحه تعود الى ربها راضية مرضية .

وجاء وحشى وقد سكن روعه فاخذ حربيته ثم انتحى الى المعسكر ولم
يكن له فى شئ حاجة غيره .

واسفرت المعركة عن هزيمة المسلمين .

وراح ابو سفيان يضرب فى شدة حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح
ويقول :

- دق عقق .

ومر الخليس سيد الاحابيش بأبى سفيان وهو يضرب فى شدة حمزة
فاستنكر ما يفعل فقال :

- يا بني كنانة . هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لهما .
فقال ابو سفيان :

- وبحك ، اكنمها عني فانها كانت زلة .

وجاء وحشي الى هند بنت عتبة فقال لها :

- ماذا لي ان قتلت قاتل ابيك ؟

- سلني .

فأخبرها انه قتل حمزة فتهللت اساريرها واعطته ثيابها وحليها ، وكان
في ساقها خدمتان (خلخالان) من جزع ظفار (بلد باليمن) واسماور
وخواتم في اصابع رجليها ثم قالت :

- اذا جئت مكة فلك عشرة دنانير .

ووقفت ترنو الى وحشي في نشوة وفرح ثم قالت :

- ارني مصرعه .

فراحا يجوسان خلال الجثث التي ملأت ارض المعركة حتى اذا ما رأت
حمزة قتيلا انقضت عليه وبقرت عن كنده فلاكتها فلم تستطع ان تسيغها
فلفظتها . وجاء نسوة قريش يمثلن بالقتلى من اصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ويجدن الاذان والانف حتى اتخذت هند من اذان الرجال
وانفهم خدما (خلخال) وقلائد ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى
صوتها :

نحن جزيناكم بيوم بدر

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر

ولا اخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت ندرى

فشكر وحشي على عمري

خزيت في بدر وبعد بدر

شفيت وحشي غليل صدري

حتى ترم اعظمي في قبري

فاجابتها هند بنت ائانة بن عباد بن عبد المطلب فقالت :

يا بنت وقاع عظيم الكفر
 اقحمك الله غداة الفجر
 بالهاشميين الطوال الزهر
 بكل قطاع حسام يفرى
 حمزة ليثى وعلى صقرى
 اذا رام شيب وابوك غدري
 مخضنا منه ضواحي النحر
 ونذكرك السسوء فشر نذر
 ولم يكن المسلمون يعلمون بمقتل حمزة بن عبد المطلب ، فارادت هند ان
 نعلنهم بالنبا لتشفى غليل صدرها وصرخت بأعلى صوتها :
 شقيت من حمزة نفسى بأحد
 حتى بقرت بطنه عن الكبد
 اذهب ذاك عنى ما كنت اجد
 من لذة الحزن الشديد المعتمد
 والحرب تعلوكم بشؤبوب (١) برد
 تقدم اقداما عليكم كالاسد
 وراح رسول الهدى يسأل :
 - ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟
 فخرج الحارث بن الصمة فأبطأ ، فخرج على بن ابي طالب يطلبه فيقول :
 يا رب ان الحارس بن الصمة
 كان رفيقا وبنا ذا ذمة
 قد ضل في مهامه مهمة
 يلتمس الجنة فيها ثمة
 حتى انتهى الى الحارث ووجد حمزة مقتولا فاعتصر الحزن قلبه وطفرت
 الدموع الى عينيه ، واجهش بالبكاء ، وعاد على وهو باسر الوجه يحمل
 نفسه حملا ، حتى اذا اقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف
 الفاجعة في وجهه فانقبض قلب رسول الرحمة ، وأقبل الرسول حتى وقف
 على حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به فجذع انفه وقطعت مذاكيره ، فنظر

(١) الشؤبوب رفعه المطر الشديدة .

صلى الله عليه وسلم الى شيء لم ينظر الى شيء قط كان اوجع لقلبه منه
وقال :

لن اصاب بمثلك ابدا . ما وقفت موقفا اغيظ لى من هذا . رحمة الله
عليك فانك كنت ما علمتك فعولا للخيرات وصولا للرحم . اما والله لئن
اظفرنى الله تعالى بقريش في موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك .
ووضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى شسحق وبلغ به
العشى وراح يقول :

— يا عم رسول الله واسد الله واسد رسول الله . يا حمزة يا فاعل
الخيرات . يا حمزة يا كاشف الكريات . يا حمزة يا ذات عن وجه رسول
الله .

ولما رأى المسلمون جزع رسول الله على عمه قالوا :
— لئن اظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها احد من
العرب .

علم الله تعالى مدى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الألم
والحزن ، وهذا هو الذى دفعه الى الرغبة في المثلة بقريش . وسأبهره
اصحابه في ذلك فأوحى جل شأنه الى رسوله عليه السلام قوله :

— « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير
للسابرين » +

فعفا رسول الرحمة ، وصبر ونهى عن المثلة .

وظلمت صفية بنت عبد المطلب . فقال عليه السلام :

— يا زبير اغنى عنى امك .

فذهب الزبير الى امه وهو حزين وقال لها :

— يا امه ، ان في الناس تكشفا فارجمى .

— ما انا بفاعلة حتى ارى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحال الانصار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

— دعوها .

فانطلقت اليه عليه السلام وقالت :

— اين ابن امى حمزة ؟

بن فقال وهو حزين :

— هو في الناس .

— لا ارجع حتى انظر اليه .

ورأت صفية اخاها حمزة وقد مثل به فاحسنت بسكاكين تمزق احشاءها وجلست عند رسول الله فجعل اذا بكى يبكي ، واذا نشجت ينشج ، وجعلت فاطمة الزهراء تبكي فلما بكى بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

— ان اصاب بمثل حمزة ابدا . وقال : جاء جبريل فاخبرني ان حمزة ابن عبد المطلب مكتوب في اهل السموات السبع « حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله » .

وكفن حمزة رضى الله عنه ببردة كانوا اذا مدوها على راسه انكشفت رجلاه وان مدوها على رجله انكشفت راسه ، فمدوها على راسه وجعلوا على رجله الاذخر .

ثم صلى عليه الرسول ، فكبر سبع تكبيرات ، وكان يؤتى بالقتلى فيوضعون الى حمزة فيصلى عليهم وعليه معهم ، ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يجاء بغيرهم فيكبر عليهم سبعا — حتى صلى عليه رسول الله يومئذ سبعين صلاة . ثم امر الرسول صلى الله عليه وسلم بدفنه مع ابن اخته عبد الله بن جحش .

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته بدميته فمر بدار من دور الانصار من بنى عبد الأشهل وظفر فسمع البكاء والنواح على قتلاهم . فلذرفت عيننا الرسول فبكى وقال :

— لكن حمزة لا بواكى له . واستغفر الله .

فسمع ذلك سعد بن معاذ فمشى الى دار بنى الأشهل واتى بنسائهم فوقف معهم جميعا على باب رسول الله وقال :

— والله لا تبكين قتلى الانصار حتى تبكين عم النبي صلوات الله عليه فانه عليه السلام ذكر انه لا بواكى له .

فوقفن يبكين ، فقال لهن الرسول :

— ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معي ، رحم الله الانصار فان المواساة فيهم كما علمت قديمة .

ونهى نساء الانصار عن النوح وقال له الانصار :

سالتها عن ذاك فاستعجمت
لم تدر ما مرجوعة السائل
دع عنك دارا قد عفا رسمها
وأيك على حمزة ذى النائل (١)
المالء الشيزى اذا اعصفت
غبراء فى ذى الشيم الماحل (٢)
والتارك القرن لدى لبدة
يعثر فى ذى الخرص الذابل (٣)
واللابس الخيل اذا احجمت
كاليث فى غابته الباسل
ابيض فى الروه من هاشم
لم يمر دون الحق بالباطل
مال شهيدا بين اسيا فكم
شلت يدا وحشى عن قاتل
صلى عليه الله فى جنة
عالية مكرمة الداخل
كفنا نرى حمزة حرزا لنا
فى كل امر نابنا نازل
وكان فى الاسلام ذا تدرأ
يكفيك فقد القاعد الخاذل (٤)
لا تفرحى يا هند واستجلبى
دمعا وأذرى عبرة الثاكل (٥)

(١) النائل : العطاء .

(٢) الشيزى : الجفان التى تصنع من خشب الشير . واعصفت : اشتدت . والغبراء :
التي تثير الغبار وتهيج . والشيم : الماء البارد . والماحل - من المحل ، وهو القحط
(٣) القرن : الذى يقاومك فى القتال . واللبدة : الغبار اللبد . وذو الخرص : الرمح .
والخرص سنانه . والذابل : الرقيق الشديد .

(٤) ذا تدرأ : يريد أنه كان كثير الدفاع عنا

(٥) أذرى : أسكبى واسترخصى . العبرة : الدفعة . الثاكل : المرأة التى فقدت ولدها .

وابكى على عقبة اذ قطه
 بالسيف تحت الرهج الجائل (١)
 اذ خر في مشيخة منكم
 من كل عات قلبه جاهل
 ارداهم حمزة في اسرة
 يمشون تحت الحاق الفاضل (٢)
 غداة جبريل وزير له
 نعم وزير الفارس الحامل

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه :
 ولقد هددت لفقد حمزة هدة
 ظلت بنات الجوف منها ترعد (٣)
 ولو انه فجعت حراء بمثله
 لرايت رأسى صخرها يتبدد
 قرم تمكن في ذؤابة هاشم
 حيث النبوة والندى والسؤدة (٤)
 والعافر الكوم الجلال اذا غدت
 ريح يكاد الماء فيها يجمد (٥)
 التارك الإقرن الكمي مجدلا
 يوم الكريمة والقنا يتقصد (٦)

(١) عبة : هو ابو هند امرأة ابي سفيان بن حرب . وكان حمزة قد قتله في يوم بدر .
 وقطه : قطعه نصفين . والرهج : الغبار . والجائل : المتحرك الشائر مما أثارته سنايك الخيل
 وأقدام المتحاربين .

(٢) ارداهم : اهلكهم . اسرة ، قرابة . الحلق : اللدوع . الفاضل : الذى يفضل
 من لابسه ويزيد عنه وينجر على الارض .

(٣) بنات الجوف : يعنى قلبه وما اتصل به مما يشتمل عليه الجوف .

(٤) القرم : السيد الشريف . وذؤابة هاشم : أعاليها ، وأراد اسمى أنسابها وأرفعها .

(٥) الكوم : جمع كوما ، وهى من الابل العظيمة السنام . والجلاد : القوة .

(٦) الكمي : الشجاع ، مجدلا : مطروحا على الجدالة وهى الارض . ويتقصد : ينكسر

وتراه يرفل في الحديد كأنه
 ذو لبدة شنن البرائن اربد (١)
 عم النبي محمد وصفيه
 ورد الحمام فطاب ذاك المورد
 واني المنية مظلما في اسرة
 نصروا النبي ومنهم المستشهد
 ولقد اخال بذلك هنداً بشرت
 لتميت داخل غصة لا تبرد
 مما صبحنا بالعنقل قومها
 يوما تغيب فيه نها الأسعد (٢)
 ويثر بدر اذ يرد وجوههم
 جبريل تحت لوائنا ومحمد
 حتى رايت لدى النبي سراتهم
 قسمين نقتل من نشاء ونطرد
 فأقسام بالعطن المعطن منهم
 سبعون عتبة منهم والاسود (٣)
 وابن المفيرة قد ضربنا ضربة
 فوق الوريد لها رشاش مزيد (٤)
 وامية الجبحى قوم ميله
 غضب بأيدي المؤمنين مهند (٥)
 فأتاك فسل المشركين كأنهم
 - والخيـل تثفـنهم - نعام شرد (٦)
 شتان من هو في جهنم ثاويا
 أبدا ومن هو في الجنان مخلد

-
- (١) الحديد : أراد به الدروع . ودو لبدة : الاسد . شنن : غليظ . البرائن للسباع .
 بمنزلة الاسابع للناس . الاربد : الاقبر يخالط لونه سواء .
 (٢) العنقل : الكتيب من الرمل .
 (٣) العطن : ميرك الابل حول الماء . والمعطن : الذي قد عود أن يتخذ عطنا .
 (٤) الوريد : مرق في صفحة العنق . ورشاش مزيد : يريد دما تلوذ البرغوة .
 (٥) غضب : سيف قاطع
 (٦) الفل : القوم المنهزمون . تثفنهم : تطردهم وتتيح آثارهم .

لقد دخل حمزة رضى الله عنه الاسلام منتصفا لمحمد رسول الهدى ،
ومات مقاتلا في سبيل الله تعالى . وقد بلغ من تفانيه في نصره دين الحق
أن محمدا صلى الله عليه وسلم سماه « أسد الله وأسد رسوله » .

وعد عاش في اقصى فترات الدعوة ، ولم يعرف الحيانة منذ اسلم الا
مضطهدا او مجاهدا ولم يمهله القدر حتى يرى الاسلام بعد فتح مكة ،
وحتى يرى الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، بل لم يمهله القدر حتى ينعم
بشيء من الراحة لقاء هذا الكفاح المجيد الذي بذل .

أن الله العلى الكبير ادخر له جزاءه كله في الجنة التى جعلها مثوى
لاكرم شهداء المسلمين .

* * *

عم الرسول
العباس بن عبد المطلب

عم الرسول العباس بن عبد المطلب

كان العباس بن عبد المطلب شريفا مهيبا ، جميلا ، وكان من اطهر
الرجال ، واحسنهم صورة وابهاهم ، واجهرهم صوتا ، مع الحلم والافر
والسؤدد .

أبوه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ، عم
رسول الله ، وصنو أبيه ، وأمه نائلة بنت جناب بن كليب ، وهى اول عربية
كسبت البيت الحرير والدباج ، وسببه أن العباس نساع وهو صغير ،
فندرت أن وجدته أن تكسو البيت ، فوجدته ، ففعلت .

ولد العباس قبل عام الفيل بثلاث سنين .

وتزوج العباس من أم الفضل لبابة الكبرى بنت الجارث . وقد رزق
منها بعدد من الاولاد . وفى ولد أم الفضل يقول عبد الله بن يزيد الهلالي :

ما والدت نجية من فحل بجبل تعلمه أو سهل

كسبته من بطون أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

كان العباس قبل المبعث رئيسا في قريش ، واليه كانت عمارة المسجد ،
فانه كان لا يدع احدا يسب في المسجد ولا يقول فيه هجرا . لا يستطيعون
لذلك امتناعا ، لأن ملا قريش قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك ، فكانوا له
اعوانا عليه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه بعد اسلامه ، وكان
وصولا لأرحام قريش ، محسنا اليهم ، ذا رأى سديد ، وعقل راجح .

قال النبی صلى الله عليه وسلم له :

« هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفا وأوصلها . هذا بقية

آبائى » .

دخل العباس على الرسول صلى الله عليه وسلم مفضضا ، فقال :

ما أغضبك ؟

فقال : يا رسول الله ، مالنا ولقريش ؟ اذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه
مبشرة ، واذا لقونا لقونا بغير ذلك .

فغضب الرسول حتى أحمر وجهه ، ثم قال :

والذى نفسى بيده ، لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبكم الله

ورسوله .

ثم قال : ايها الناس من آذى عمى فقد آذانى ، فانما عم الرجل صنو
ابيه.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا . ومنزلى ومنزل ابراهيم .
تجاهين فى الجنة ، ومنزل العباس بن عبد المطلب بيننا مؤمن بين خليلين » .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « ان رجلا من الانصار وقع فى اب
العباس كان فى الجاهلية ، فلطمه العباس ، فجاء قومه فقالوا : والله لناطمته
كما اطمه ، فلبسوا السلاح .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد المنبر فقال :

— ايها الناس ، اى اهل الأرض اكرم على الله ؟
قالوا : انت .

قال : فان العباس منى وانا منه ، لا تسبوا امواتنا فتؤذوا احياءنا .

فجاء القوم فقالوا : نعوذ بالله من غضبك يا رسول الله .

وعن ابن عباس :

« ان النبى صلى الله عليه وسلم جعل على العباس وولده كساء ،
ثم قال :

« اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة ، لا تغادر ذنبا . اللهم
اخلفه فى ولده » .

وعن اسماعيل بن قيس بن سعد ، عن ابي حازم ، عن سهل ، قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيظ ، فقمام لبعضى
حاجته ، فقمام العباس يستره بكساء من صوف ، فقال : اللهم استر العباسى
وولده من النار .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— « استرصوا بالعباس خيرا ، فانه عمى وصنو ابى » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

— ما رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس احدا ما يجلس العباسى
او بكرم العباس .

روى عنه عبد الله بن الحارث ، وعامر بن سعد ، والاحنف بن قيس ، وغيرهم . وله احاديث منها :

عن عبد الله بن عباس قال : اخبرني ابي العباس انه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله انا عمك ، كبرت سننى ، واقترب اجلى ، فعلمنى شيئا ينفعنى الله به ، فقال :

— يا عباس انت عمى ولا اغنى عنك من امر الله شيئا ، ولكن سل ربك العفو والعافية .

وعن عامر بن سعد ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبلاسلام ديننا ، وبمحمد رسولا » .

* * *

شهد العباس بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، لما بايعه الأنصار ليشدد له العقد .

خرج الأنصار من يثرب فى حجاج قومهم من المشركين ومعهم البراء بن معرور سيدهم وكبيرهم ، وكان البراء فى شوق للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آمن به قبل ان يراه . وبيناهم فى الطريق التفت البراء الى كعب بن مالك وقال له :

— انى قد رايت رايما ما ادرى اتوافقوننى عليه ام لا .

— وما ذاك ؟

— رايت ان لا ادع هذه البنية (الكعبة) منى بظهر ، وان اصلى اليها .

— والله ما بلفنا ان نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى الا الى الشمام ، وما نريد ان نخالفه .

كانت قبلتهم بيت المقدس ، ولكن البراء بن معرور راي ان البيت العتيق اولى بأن يكون لهم قبلة فقال :

— انى اصلى اليه .

— ولكننا لا نفعل .

ولما قدموا مكة قال البراء لكعب بن مالك :

- بابين آخر، انطلق، بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا ، فانه والله قد وقع في نفسى منه شيء لما رايت من خلافتكم اياى فيه .

فخرجنا بمسالن عن الرسول وكانا لا يعرفانه لأنهما لم يرياه قبل ذلك ، فلتقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

- يعرفانه ؟

- لا .

- فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟

- نعم .

كانا يعرفان العباس فقد كان لا يزال يقدم عليهم تاجرا ، قال الرجل :

- فاذا دخلتما المسجد فاذا هو الرجل الجالس مع العباس .

ودخلا المسجد ، ورأيا العباس فراحا يتقدمان اليه ، وغدوا يتفرسان في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد خفقت قلوبهما حبا واملا ، وفطن رسول الهدى الى أنهما قادمان اليه فقال للعباس :

- هل تعرف هذين الرجلين يا ابا الفضل ؟

- نعم ، هذا البراء بن معروز سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .

- الشاعري ؟

واتلج صدر كعب فرسول الهدى قد سمع به وبشعره ، وحبا البراء وكعب الرسول بتحية الاسلام فرد بأحسن منها ، ثم قال البراء :

- يا رسول الله انى قد خرجت في سفري هذا وقد همدانى الله الى الاسلام ، فرأيت ان لا اجعل هذه البنية منى بظهر فصليت اليها وخالفنى اصحابى في ذلك حتى وقع في نفسى من ذلك شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال الرسول :

- قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء الى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يصلى مع اخوانه في الدين الى بيت المقدس .

وجاء مصعب بن عميرة الى الرسول مشرق الوجه ، ثم راح يخبره بمن اسلم من الأنصار والرسول عليه الصلاة والسلام يصفى اليه وقد غمره

للأسرى ، فقد لا يجد تباشير النصر بعد طول الترقب .

وولع الأقصار الرسول صلى الله عليه وسلم العقبة ، وكانوا يكتفون
من معهم من قومهم من المشركين أمرهم ، وكان فيهم أبو جابر عبد الله بن
عمر بن حرام مسيح من ساداتهم فكلّموه وقالوا له :

— يا أبا جابر أنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وأنا نرغب
بك عما أنت فيه أن تكون حطما للنار غدا .

وعذروا بدعونه إلى الإسلام حتى شهد شهادة الحبس وصلى معهم ،
وأخبروه بميعاد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وانقضى يوم النضرة الأولى وجاءت الليلة التي وأمدرا رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فمكثوا تلك الليلة مع قومهم في رحالهم حتى إذا مضى
تلك الليل خرجوا من رحالهم لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
يتسلل الرجل والرجلان تسلل الخطأ مستخفين لا ينبهون نائمًا ، ولا
ينتظرون غائبًا كما أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

واجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانوا ثلاثا وسبعين رجلا واسرائين :
نسبة أم عمارة من بنى النجار وأم منيع اسماء بنت عمر بن عبد
فما زالوا ينتظرون الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جاءهم ومعه
العباس بن عبد المطلب ليس معه أحد من الناس غيره ، وكان يتخفى به في
أمره كله .

وقد أوقف العباس على بن أبي طالب على فم الشعب عينا له ، وأوقف
أبا بكر الصديق على فم الطريق الآخر عينا .

فلما اجتمعوا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

— يا معشر الخزرج — وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج — انكم
قد دعوتكم محمدا إلى ما دعوتوه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ،
يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب
والشرف . وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد
وبصر بالحرب واستقلال بمناواة العرب قاطبة ، فانها سترميكم عن قوس
واحدة ، فارتدوا رايكم ، واتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملائمتكم
 واجتماع فان أحسن الحديث صدقه .

— قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك
ما أحببت .

— خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت .
— اشترط لربي عز وجل ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى ان تمنهونى مما تمنعون منه انفسكم وابناءكم ونساءكم .

— فاذا فعلنا فما لنا ؟

— لكم الجنة .

— ربح البيع لا ثقل ولا نستقيل . نبأيعك .
فأخذ ابراء بن معرور بيده صلى الله عليه وسلم ثم قال :
— نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزربنا النساءنا وانفسنا) فنحن والله اهل الحرب واهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر .
وبينا ابراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابو الهيثم ابن التيهان :

— نقبلك على مصيبة المال وقتل الأشراف .

قال العباس : اخفوا جرسكم فان علينا عيونا .

قال ابو الهيثم : يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال (اى اليهود) حبالا « عهودا » وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ » .

فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال :

— بل الدم الدم والهدم الهدم (١) .

وقال العباس بن عبد المطلب :

— عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم فى هذا الشهر الحرام والبلد الحرام يد الله فوق أيديكم ، لتجدن فى نصرته ، ولتشدن من أزرو .

قالوا جميعا : نعم .

قال العباس : اللهم انك سامع شاهد ، وان ابن اخى قد استترعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن اخى عليهم شهيدا .

(١) ان طلب دمكم فقد طلب دى ومنزلكم منزلى .

به قال صلى الله عليه وسلم :

— اخرجوا الى منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فمن الخزرج اسعد بن زرارة نقيب بنى النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة نقيبا بنى الحارث بن الخزرج ، ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بنى زريق ، والبراء ابن معرور ، وعبد الله بن عمرو نقيبا بنى مسلمة ، وعيادة بن الصامت نقيب بنى عدى من الخزرج ، وسعد بن عباد والمندر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة ، ومن الأوس اسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ، وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف .

وقال صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء .

— انتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وانا كفيل على قومي . وأخذ اسعد بن زرارة بيد الرسول صلى الله عليه وسلم وقال :

— رويدا يأهل يثرب ، انا لن نضرب الا اكباد الابل الا ونحن نعلم انه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان اخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن تعطيك السيف ، فاما أنتم قوم تصرون عليها اذا مستكم يقتل خياركم ومفارقة العرب كافة ، فخذوه وأجركم على الله تعالى ، وأما انتم تخافون من انفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله عز وجل .

وقال العباس بن عباد :

— يا معشر الخزرج هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ انكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فاذا كنتم ترون انكم اذا نهكت اموالكم محسبة واشرافكم قتلا اسلمتموه فمن الآن ، فهسو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتوه اليه على ما ذكرت لكم . فهو والله خير الدنيا والآخرة .

— رضينا ، أبسط يدك .

فبسط يده صلى الله عليه وسلم وتقدم الرجال للمبايعة .

كان العباس بن عبد المطلب يصغى الى ما يدور بين ابن اخيه عليه الصلاة والسلام والأنصار وهو في دهش من امر القوم الذين يبايعون على محاربة الأسود والأحمر وعداوة العرب كافة وهم متهللون بالبشر والفرح ، كأنما كانوا يدعون الى متعة من متع الحياة .

اكان العباس بن عبد المطلب على دن قومه حقا ، وانه احب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له ، أم ان العباس قد اسلم سرا وانه كتم اسلامه نزولا على رغبة ابن اخيه ليكون قلم مخابراته في مكة اذا ما اضطر رسول الهدى يوما الى ان يهاجر من مكة ؟

ان زوجه ام الفضل اسلمت بعد ان حدثتها خديجة مباشرة حديث الملك الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بغار حراء ، وقد ظلت العلاقة طيبة بين ام الفضل والعباس بعد ذلك . ترى اكانت ام الفضل نرضى ان يبقى العباس على كفره وان تظل على حبها اياه واجلاله ؟ واذا ما حرم الاسلام فيما بعد ان تظل الزوجة المسلمة مرتبطة بزوجه الكافر ، اتهاجر أم الفضل العباس ام تظل فى بيته ؟ !

* * *

مضت الارستقراطية القرشية سادرة فى غيها ، تؤذى النبى والدين آمنوا معه ، فهاجر المسلمون الى المدينة معقل الاسلام وملجأ جمـاعة المسلمين ، وهناك اسس الرسول الدولة الاسلامية لتكون حصنا للمسلمين وقاعدة انطلاق لنشر راية التوحيد .

كانت مكة غارقة فى صمت عميق . وكانت عائكة بنت عبد المطلب غارقة فى النوم فرأت عمه الرسول رؤيا أفزعته فبعثت الى اخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له :

يا اخى والله لقد رايت الليلة رؤيا افظعتنى وتخوفت ان يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاکتم عنى ما احدثك .
فأقبل عليها العباس فقالت :

— لن احدثك حتى تعاهدنى ان لا تذكرها فانهم ان سمعوها آذونا واسمعونا مالا نحب . فعاهدها العباس فقال لها : ما رايت ؟

— رايت راكبا اقبل على بعيرك حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته الا فانفروا بالفدر مصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعيره على راس ابى قبيس فصرخ بمثلها . ثم اخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل أرفضت (تفتت) ، فما بقى بيت فى بيوت مكة ولا دار الا دخلت منها قلقة .

— والله ان هذه لرؤيا ، وانت فاکتميتها ولا تذكرها لاحد .
ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقا

فذكرها له ، واستكتمه اباه . فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشأ الحمديت
بمكة حتى تحدثت به قريش في انديتها . فغدا العباس ايظسوف بالبيت
وابو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة : فلمما
رآه أبو جهل قال :

— يا ابا الفضل اذا فرغت من طوافك فاقبل علينا .

فلما فرغ اقبل حتى جلس معهم فقال ابو جهل :

— يا بنى عبد المطلب متى حدثت فبكم هذه النبوة ؟

— وما ذلك ؟

— تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .

— ما رأت ؟

— يا بنى عبد المطلب اما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ،
لقد زعمت عاتكة فى رؤياها انه قال : انفروا فى ثلاث : فسنتربص بكم هذه
الثلاث فان بك حقا ما تقول فسيكون . وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك
شيء نكتب عليكم كتابا انكم اكذب اهل بيت فى العرب .

ولم يستطع العباس ان يفعل شيئا الا ان ينكر رؤيا عاتكة ، ثم تفرقا
فلما جاء المساء وذاع فى دور بنى عبد المطلب ما كان بين العباس وابى
جهل لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب الا اتت العباس فقالت :

— اقررتم ابذا الفاسق الخبيث ان يقع فى رجالكم ثم قد تناول
النساء وانت تسمع ، ثم لم يكن عندك ثيرة لشيء مما سمعت .

فقال العباس :

— قد والله فعلت ما كان منى اليه من كبير ، وايم الله لأتعرضن له فان
عاد لالفيئكنه .

فغدا العباس فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد مغضب يرى
انه قد فاته من ابى جهل امر يجب ان يدركه منه ، فدخل المسجد فسرآه
فمشى نحوه ليتعرضه ليعود لبعض ما قاله فيقع به ، وكان رجلا خفيفا
حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ، فاذا به يخرج الى باب المسجد
يشدد فقال العباس فى نفسه :

— ما له لعنه الله ! اكل هذا فرق منى ان اشاتمته !

واذا هو قد سمع ما لم يسمع العباس : صوت ضمضم بن عمرو
الفغاري . وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره ، قد جدد بعيره (قطع
انفه) وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

— يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (الابل التي تحمل البر والطيب)
اموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا ارى ان تدركوها .
الفوث ! الفوث !

فشغل العباس عن ابي جهل وشغل ابا جهل عن العباس ما جاء من الامر
وكانت معركة بدر ، بين كتيبة الايمان ، وقوى الشرك والظلام ، ابلى فيها
المسلمون بلاء عظيمًا ، وتساقطت رءوس المشركين تحت ضربات سيوف
كتيبة الايمان .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

— انكم قد عرفتم ان رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد اخرجوا اكرامها
لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، ومن لقي ابو
البختری بن هشام فلا يقتله . كان ابو البختری ممن لا يؤذى النبي صلى
الله عليه وسلم ، وهو بمكة ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة الظالمة ورفع
الحصار الذي ضربته قريش على بنى عبد المطلب وبنى هاشم لمناصرتهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلماذا ذكر العباس دون غيره من بنى
هاشم ؟

اكان العباس قد أسلم وكنتم اسلامه ليكون عينا على قريش ؟
فقال ابو حذيفة بن عتبة :

— ايقتل آباؤنا واخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ لئن اقيته لالجمته
بالسيف .

راى ابو حذيفة مقتل ابيه عتبة بن ربيعة وعمه شيبه واخيه الوليد
فهزته المأساة على الرغم من صدق ايمانه فقال مقالته ، فلما بلغت رسول
الله قال لعمر بن الخطاب :

— يا ابا حفص ، اضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟

فقال عمر في تأثر وانفعال :

— يا رسول الله ، دعنى اضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نأفق .

فكان ابو حذيفة يقول :

— ما انا بآس من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا ازال منها خائفا
الا ان تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا .

لم يدع الرسول ابن الخطاب يضرب عنق ابي حذيفة ، فقد بلغ الرسول
اربه باعلان انه لن يرضى عن قاتل العباس ، ولو كان العباس كافرا ما اهتم
به رسول الهدى الذى بعث بالحق كل هذا الاهمام ، ولكنه كان عليه السلام
يخشى ان يقتل مظلوما وان يفقد عينيه فى مكة .

ساق المسلمون اسرى المعركة من المشركين ، ووقف ذكوان بن عبد فيس
يحرس الأسارى ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له اصحابه :

— مالك لا تنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنين العباس (١) فى وثاقه .

فقال رجل فأرخى من وثاقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— مالى لا اسمع انين العباس ؟

فقال رجل من القوم :

— انى ارخيت من وثاقه شيئا .

قال رسول الهدى :

— فافعل ذلك بالأسارى كلهم .

وفى الصباح .. قال الرسول للعباس :

— يا عباس اهد نفسك وابن اخيك عقيل بن ابي طالب ونوفل بن
الحارث وحليفك متبة بن عمرو فانك ذو مال .

— يا رسول الله انى كنت مسلما ولكن القوم استكروهونى .

— الله اعلم باسلامك ، ان يك ما تذكر حقا فالله يجزيك به ، فاما ظاهر
امرك فقد كان علينا ، فافد نفسك .

وكان الرسول قد اخذ منه عشرين أوقية من ذهب ، فقال العباس :

— يا رسول الله احسبها من فداى .

(١) روى معركة مولى ابن عباس من ابي رافع قال : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب .
وكان الاسلام قد نشأ فينا اهل البيت فاسلم العباس واسلمت ام الفضل وزوجه . وكان
العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم اسلامه .

... لا ، ذاك شيء اعطانا الله منك .

— فانه ليس لى مال .

قال الرسول : فابن المال الذى وضعت بمكة حين خرجت عند ام الفضل بنت الحارث ليس معكما احد ، تم قلت لها ان اصبحت فى سفرى هذا فالفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا وكذا ؟

قال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا احد غيرى وغيرها ، وانى لاعلم انك رسول الله . نفدى العباس نفسه وابن اخيه وحليفه .

اراد العباس الهجرة من مكة الى المدينة ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « مقامك بمكة خير » كان من بمكة من المسلمين يتقوون به . وكان ينسب الى الرسول اخبار المشركين .

ولذلك كان الرسول يقول له : « يا عم ، اقم مكانك الذى انت به فان الله تعالى ينعم بك الهجرة كما ختم بى النبوة » .

تم هاجر العباس الى النبی صلى الله عليه وسلم ليكون له الثواب الذى يستحقه بعد كل ما ادى للاسلام من خدمات فى الخفاء ، فلم تعد هناك حاجة لخدماته وقد اصبح فتح مكة على الابواب .

وخرج العباس فى غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى الرسول بالجحفة فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :

— هجرتك يا عم آخر هجرة .

ونال العباس الجزاء الاوفى ورجع معه عليه السلام الى مكة ليكون له فضل الجهاد الى فضل الاسلام والهجرة . وارسل اهله ومناعه الى المدينة حتى اذا ما نزل المسلمون بمر الظهران واوقدوا النيران رق قلب العباس لاهل مكة وقال :

— واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل ان ياتوه فيستأمنوه انه لهلاك قريش الى آخر الدهر .

فجلس العباس على بقلعة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرج عليها والسنة النيران تتراقص وسار على ضوءها حتى جاء الأراك . والتقى بأبى سفيان بن حرب .

فقال له : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به .

فقال ابو سفيان في ياس :

-- واصباح فريش ! والله ، فما الحيلة فذاك ابى وامى ؟

ـ والله ، لئن ظفر بك ليخربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البقرة حتى آتبك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسنامنه لك .

فركب ابو سفيان خلف العباس فجاء به حتى مر على نيران عمر بن الخطاب وكان على الحرس .

فقال : من هذا :

وفام الى العباس . فلما رأى ابو سفيان على عجز الدابة قال :

-- ابو سفيان : عدو الله الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله فركضت البقرة فسبقتة وراح عمر يعدو خلفها ، ودخل العباس على الرسول . ودخل عمر في اثره فقال وهو يلتقط اناسه :

ـ هذا هو ابو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد : فدعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس : يارسول الله انى قد أجرته .

فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام : دعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس في غضب :

ـ مهلا يا عمر فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا . ولكنك قد عرفت انه من رجال بنى عبد مناف .

فقال عمر :

ـ مهلا يا عباس . فوالله لاسلامك يوم اسلمت كان أحب الى من اسلام الخطاب لو اسلم . وما بى الا انى قد عرفت ان اسلامك كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسلام الخطاب لو اسلم .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأننى به .

وفي الصباح آمن ابو سفيان بدعوة الاسلام ، وشهد شهادة الحق .

ودخل الرسول والذين آمنوا معه مكة ترفرف عليهم رايات النصر المبين .

سمع المسلمون بعد فتح مكة مباشرة بتجمعات لعرب هوزان من ثقيف :
ومعها بنو نصر ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر ، وبنو هلال . .

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج لقتالهم ، فخرج على رأس أصحابه ، مهاجرين وأنصارا ، وانضم اليهم من آل مكة ، الذين أسلموا حديثا وكان مجموع الجيش اثني عشر الفا . ولما استقبل المسلمون وادى حنين انحدروا في زاد من أودية تهامة ، وكان القوم قد سبقوهم الى هذا الوادى ، فكمنوا لهم في شعابه وأحناؤه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فما راعهم الا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، واستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر .

وانهرم الناس اجمعون ، وانشَمروا لايلوى أحد على أحد ، وانحاز الرسول ذات اليمين ، ثم قال :

— اين ايها الناس هلموا الى ، انا رسول الله ، انا محمد بن عبد الله .
وانطلق الناس الا انه قد بقى مع الرسول نفر من المهاجرين والأنصار واهل بيته .

وقال الرسول :

— يا عباس ، اصرخ ، يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة .

فنادى العباس ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة !
فأجابوا : ليك ! ليك !

وتجمع الناس من جديد . . وانتصر المسلمون بفضل ثبات الرسول والفئة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم . يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم (١) .

(١) سورة التوبة : ٢٥ - ٢٨ .

ومات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وكان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه .
واستسقى عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنه عام الرمادة لما اشتد القحط .

فسقاهم الله تعالى به ، فأخصبت الأرض . فقال عمر : هذا والله الوسيلة الى الله ، والمكان منه .

وقال حسان بن ثابت :

سأل الامام وقد تتابع جدينا
فسقى الغمام بكرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي
ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الاله به البلاد فأصبحت
مخضرة الأجناد بعد الياس

ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ، ويقولون : هنيئا لك ساقى الحرمين .

ولما كثر المسلمون في عهد عمر ضاق بهم المسجد ، فاشتري عمر ما حول المسجد من الدور الا دار العباس بن عبد المطلب وحجر أمهات المؤمنين فقال عمر للعباس :

— يا أبا الفضل ، ان مسجد المسلمين قد ضاق بهم . وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم الا دارك وحجر أمهات المؤمنين اما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل اليها ، واما دارك فبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين اوسع بها في مسجدهم .

فقال العباس :

— ما كنت لأفعل .

قال عمر :

— اختر منى احدى ثلاث : اما ان تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، واما ان أخطئك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، واما ان تتصدق بها على المسلمين .

— لا ، ولا واحدة منها .

— اجعل بينى وبينك من شئت .

— أبى بن كعب .

فانطلقا الى أبى بن كعب فقصا عليه القصة ، فقال أبى :

— ان سئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم .

فقالا : حدثنا .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله اوحى الى داود ان ابن لى بينا اذكر فيه . فخط له هذه الخطة ، خطة بيت المقدس ، فاذا تربيعها بيت رجل من بنى اسرائيل ، فسأله داود ان يبيعه اياه فأبى فحدث داود نفسه ان يأخذه منه ، فأوحى الله اليه ان يا داود امرتك ان تسنى لى بيتا اذكر فيه ، فأردت ان تدخل فى بيتى الغصب وليس من شأنه الغصب ، وان عقوبتك ان لا تبنيه ، قال : يا رب فمن ولدى ؟ قال : من ولدك .

فأخذ عمر بمجامع ثياب أبى بن كعب ، وقال :

— جئتكم بشيء فجئت بما هو أشد منه ، لتخرجن مما قلت .

فجاءه يقوده حتى ادخله المسجد فأوقفه على حلقة من اصحاب رسول الله ، فيهم أبو ذر الغفارى فقال :

— انى نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه الا ذكره .

فقال أبو ذر : انا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخر : انا سمعته .

واقبل أبى على عمر فقال :

— يا عمر اتتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : يا أبا منذر لا والله ما اتهمتك عليه ، ولكنى كرهت ان يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا .

والتفت عمر للعباس وقال : اذهب فلا تعرض لك فى دارك .

قال العباس :

— اما اذ فعلت فاني قد تصدقت بها على المسلمين اوسع بها عليهم في مسجدهم ، فاما وانت تخاصمني فلا .

كان الصحابة يقدرّون العباس ويحترمونه ، فكان العباس اذا مر بعمر بن الخطاب او بعثمان بن عفان ، وهما راكبان ، نزلا حتى يجاوزهما اجلالا لهم رسول الله .

وعن مهيب مولى العباس ، قال : رايت عليا يقبل يد العباس ورجله ويقول ، يا عم ارض عني .

وقد توفي العباس بن عبد المطلب بالمدينة المنورة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب . وقيل ، بل من رمضان ، سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة . وصلى عليه عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، ودفن بالبقيع .

فناطمة الزهراء

مولدها ونشأتها

فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، البضعة النبوة ، والجهة المصطفوية ، أم أبيها بنت رسول الهدى صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة الطاهرة ، سيدة نساء قريش .

كانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنها للرسول الأعظم منذ أول ساعات النبوة .

لقد نزل عليه الروح الأمين أول ما نزل في غار حراء ، فلم يكن ما رآه بشراً من الناس ، ولا خلقاً مما يتخيله المتخيلون ، فقرأ . ما شاء الله أن يقرئه من آى الكتاب الكريم ، ثم أخذ يتراءى له في طريقه بين السماء والأرض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه فيقف لا يتقدم ولا يتأخر كل ذلك ورسول الهدى بين شعاب الجبل ، وفي وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمر ولا معين ولا نصير .

لم يزل الرسول الكريم في موقفه هذا ، حتى انصرف الملك عنه ، فانصرف هو الى زوجه خديجة فزعا مرعوباً مما سمع ورأى ، فلما بصرت به ، قالت :

— أين كنت يا أبا القاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى في طلبك حتى بلغوا مكة ، ثم رجعوا الى .

فحدثها رسول الله حديثه ، فقالت :

— أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة في بده ، انى لأرجو ان تكون نبى هذه الأمة .

وقامت خديجة ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها ورقة ابن نوفل فاخبرته خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ورقة :

— قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبى هذه الأمة . فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانت آية البشر والبشرى له .

سارت خديجة أم المؤمنين في تثبيت قلب الرسول ، وترويح نفسه ، وتأيد أمره : فلم ير شيئاً يحزنه ، من رد عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، إلا فرحت صدره أذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه ، وهونت الأمر عليه .

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدتها ويتفقد موطن ذكرها أعواماً بعد أعوام ، قالت عائشة رضى الله عنها :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناء عليها واستغفار لها . فذكرها يوماً ، فحملتنى الغيرة فقلت : لقد عوضك الله من كبيرة السن !

فغضب الرسول غضباً شديداً ، فأسقط في يدي وقلت في نفسي : اللهم ان اذهبت غضب رسولك عنى لم اذكرها بسوء . فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما لقيت قال : كيف قلت ! والله لقد آمنت بى اذ كذبتى الناس ، وآوتنى اذ رفضنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمت منه منى .

قالت : فقدنا وراح على بها شهراً .

كانت السيدة خديجة عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة ، ومن كرامتها عليه صلى الله عليه وسلم أنه لم يتزوج امرأة قبلها ، وجاءه منها عدة اولاد ، ولم يتزوج عليها قط امرأة ولا تسرى الى ان قضت نحبها ، فوجد لفقدتها ، فانها كانت نعم القرين ، وقد أمر الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب .

وقد رزق الرسول من السيدة خديجة بعدد من الاولاد : زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة والقاسم وعبد الله ، ولكن الله لم يشأ لهما ان يعيشا طويلاً ، بل ما لبث ان استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر . في العام العاشر من زواج الرسول الأعظم والسيدة خديجة الطاهرة .. استعدا لاستقبال ثمرة جديدة للزوجية السعيدة .

وصادف مولدها ، حادثاً جليلاً في تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الدينى اجمع .

كانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة في ان تغيد بناء الكعبة بعد ان تصدعت جدرانها ، وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم باصلاح الكعبة ،

فقد رمى البحر بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل مسيحي مصري نجار بناء .

بدأت قريش عملية الهدم والبناء ، وكان أول من بدأ الهدم أبو وهب ابن عمر بن عائذ بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا ، فوثب في يده حتى رجع الى موضعه كما يروى ابن هشام - فقال :

- يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسيكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة : فكان شق البساب لبني عبد مناف وزهرة . وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم . وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم عمرو بن هيصم بن لؤى . وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبنى أسد بن العزى . وقد هاب الناس هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد ابن المغيرة :

- أنا ابدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ، ثم قام عليها وهو يقول :

- اللهم لم ترع ، اللهم انا لا نريد الا الخير .

ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا :

- ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله صنعنا فهدمنا .

فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى اذا انتهى الهدم بهم الى الاساس أساس ابراهيم عليه السلام افضوا الى حجارة خضراء كالأسنمة أخذ بعضها بعضا ، فأروا أن يتخذوا هذه الاحجار أساسا للبناء الجديد .

بدأ بناء الكعبة من جديد ، وكان بابها لاصقا بالأرض منذ عهد ابراهيم عليه السلام فقال أبو حنيفة بن المغيرة .

- يا قوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد الا يسلم ، فانه لا يدخلها حيثئذ الا من أردتم فان جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه .

جمعت بطون قريش احجارا من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة وبدأت البناء حتى بلغ البناء موضع الركن ، أي الحجر الأسود ،

واصبح ارتفاع البناء حينئذ الى قامة الرجل، وارادوا وضع الحجر الأسود في مكانه في الجانب الشرقى ، فاختلقت بطون قريش على من يحوز شرف اعادة الحجر الاسود الى مكانه واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش . فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقبوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وادخلوا ايديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة قسموا لقعة الدم ، ومكثت قريش على ذلك اربع ليال او خمسا ، ثم اجتمعوا في المسجد . فوقف ابو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش فقال :

— يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم — فيما تختلفون فيه — أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه . .

فوافقوا على هذا الراى ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما راوه قالوا : — هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم اخبروه الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« هلم الى ثوبا » فأتى به ، فاخذ الركن ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه ، وبذلك حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ، ورضى الكل بحكمه صلى الله عليه وسلم والى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن وهب المخزومي :

تشاجرت الأحياء في فصل خطة
جرت بينهم بالنجس من بعد اسعد

تلاقوا بها بالبغض بعد مودة
وأوقد ناراً بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده
ولم يبق شيء غير سل المهند

رضينا وقلنا العدل أول طالع
يجىء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد
فقلنا رضينا بالأمين محمد

الحسين بن علي

ورجع رسول الهدى ، ليطمئن على سلامة زوجته ، فاذا به يتلقى طفلته الرابعة : فاطمة الزهراء (١)

تفتحت حياة فاطمة على أضواء الرسالة السماوية ، التي راح محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الايمان بها ، وترك عبادة الأوثان .

كان رسول الهدى يجادل الناس بالتى هى احسن ، ويحاول مخلصا رفع العصائب عن عيونهم ليروا نور السلام ، ويؤمنوا بالله الواحد ، الفرد الصمد . ولكن الارستقراطية القرشية ناصبته العداء ، ولم تصغ الى كلمة الحق . فقد رأت فى دعوة الاسلام خطرا يهدد مصالحها الذاتية ، ويقضى على امتيازاتها الطبقية ، فتأمرت للقضاء عليه وعلى دعوته ، ولكن الله حفظ رسوله واتم نوره .

عاشت فاطمة فى وسط خضم زاخر من الآلام ، التى تصهر فيها الدعوات .. كانت هى وحدها - دون اخواتها - التى تقف بجوار أبيها حين يلقي عنق الكافرين ، وايداء المشركين .

كانت بالقرب منه يوم سعى الى الكعبة ، حتى استلم الركن ، فما أن رآه بعض الطغاة حتى أسرعوا اليه وأحاطوا به ، وصرخوا فيه :

- أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ وأحصوا ما قال من شتم آبائهم ، وعيب آلهتهم وتسفيه احلامهم .

فيجيبهم الرسول فى صوت هادئ ثابت قوى :
- نعم ، أنا الذى يقول ذلك .

وشاهدت الزهراء . رجلا منهم ، يثب الى أبيها ، ويشده من تلابيه ، فوقعت مدهولة مدعورة مما يصيب أباه ، أحب الناس اليها ، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئا أمام هؤلاء الطفافة . ثم شاهدت أبا بكر يقف دون رسول الله باكيا ، ويقول :

- أقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟

فالتفتوا اليه ، وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه بلحيته ثم لم يدعوه حتى صدعوا رأسه .

(١) الزهراء : المشرقة الوجه

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته ، وفاطمة تتبعه ،
وترى الناس احرارا وعبيدا يلقونه في الطريق ، يكذبونه ويؤذونه !

وكانت فاطمة أيضا بالقرب منه ، يوم كان ساجدا في البيت العتيق ،
وحوله قوم من طفاة قريش ، فجاء « عقبة بن أبي معيط » ، بسلى جزور ،
فقدفه على ظهره الشريف ، فلم يرفع الرسول الأعظم رأسه ، حتى تقدمت
ابنته فاطمة في شجاعة وثبات ، فأخذت السلى . ورفعت رأسها تدعو
على من صنع ذلك ، ثم رفع رسول الله رأسه وقال :

« اللهم عليك المأ من قريش ! اللهم عليك أبا جهل بن هشام . وعتبة
ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط ، وأبى بن خلف » .
ران على القوم صمت عميق حين سسمعوا دعاء النبي ، وبعد سنوات
كان هؤلاء جميعا صرعى في القليب بجوار ماء بدر .
وكانت الزهراء ، هناك بالقرب من أبيها ، يوم خرج الى قريش . وقد
نزل عليه قوله تعالى :

« وانذر عشيرتك الاقربين » فجعل رسول الله ينادى :
« يا معشر قريش ، اشتروا انفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا .
يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا .
يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا .
يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا .
ثم نظر رسول الهدى الى ابنته فاطمة ، واستطرد قائلا :
« ويا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من
الله شيئا » .

وتأثرت الزهراء من نداء أبيها ، وكأنى بها قد همست في نفسها
مستجيبة ملبية :

« لبيك يا أحب والد وأكرم داع »

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يضرب الرسول فيها المثل بابنته
فاطمة ، تأكيدا لما يريد نشره في المجتمع من الحق والعدل . فقد روى

التاريخ ان امرأة من قرينس سرقت بعد ان اسلمت ، وبلغ الرسول امرها فأشفقت تريش أن يقام عليها الحد ، وتقطع يدها ، فاستشفعوا نها عند الرسول حتى جاءوا اسامة بن زيد ليشفع فيها ، وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكلمنى يا اسامه ، فان الحدود اذا انتهت الى ، فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها » .

في بيت النبوة ، ومهبط الوحي . درجت فاطمة الزهراء ، وتفتحت عيونها على الحياة ، وتعلمت في دار أبيها ما لم يتعلمه طفلها غيرها في مكة : آيات من القرآن وعادات ياباها من حولهم العابدون وغير العابدين :

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية فكانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد ، وكانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء في أكثر أيامها .

لقد نشأت الزهراء نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع الأيام انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء .

مضت سنوات من بعثة الرسول الكريم شاهدة فاطمة خلالها من ألوان العذاب والاضطهاد ما لم تسمع به العرب من قبل ، حتى اضطرب بعض المسلمين الى الهجرة نحو الحبشة ، وطسجت فاطمة أبويها الى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار الدامى سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمها الطاهرة خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب وعلى أثره هاجر على بن أبى طالب . وكان قد تمهل ثلاثة أيام في مكة ، ريثما أدى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، الودائع التى كانت عنده للناس .

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيها فصحبهما الى يثرب . ولم تمر رحلتها بسلام . فانهما ما كادتا تودعان أم القرى ، حتى أخذ اللثام من مشركى مكة يطاردونهما وقد رآهما الحويرث بن نقيد ابن عبد قصى ، وهو ممن أذى الرسول بمكة ، فآلهب راحته ، ضربا بالسياط حتى لحق بهما وطاردهما ، حتى نخس بصيرهما ، فألقى بهما

أديم الصحراء ! وكانت فاطمة الزهراء ضعيفة البنية ، نحيلة الجسم ، لم تسترد قوتها بعد من آثار الحصار المنهك ، فما كادت تقوم من وقعته حتى سارت بقية الطريق الى يثرب ، وما تكاد ساقاها تستطيعان حملها مما أصابها من تعب ، وما نالها من نصب .

وقصت الزهراء على الرسول ما صنع الحويرث ، معها ومع أختها . ولم يبق في المدينة من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمضي السنوات والرسول لا ينسى الفعلة الأثمة ، حتى اذا جاء العام الثامن من الهجرة ؛ وفتح المسلمون مكة ، أمر الرسول أن يقتل أمراؤه نفرا من المشركين ، ولو وجدوهم تحت أستار الكعبة ، وكان من بين النفرا الذين سماهم الرسول (الحويرث) .

وكان حظ الحويرث من القتل على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

زواجها

صارت فاطمة الزهراء زهرة متفتحة في الثامنة عشرة من عمرها . وجاء أبو بكر المصديق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاطمة فاطرق عليه السلام قليلا ثم قال :

— انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب بخطبة الصديق اياها وفكرت في الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقبت ذلك القضاء الذي ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء عمر بن الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاطمة فقال له عليه السلام :

— انتظر بها القضاء .

دار حديث في الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم ايمن حول خطبة عمر فانما طمة ورفض الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الزواج في كياسة وادب وذلك القضاء الذي ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤد الحوار الى حقيقة تطمئن اليها قلوب اهل البيت .

وفطن أبو بكر وعمر الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ادخر الزهراء العلى بن أبى طالب ، فجاء الى على يأمرانه أن يخطبها فنبهاه لأمير كان عنه غافلا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياه بتحية الاسلام . ثم جلس على استحياء قريبا من الرسول الكريم ، لا يذكر شيئا مما جاء من أجله ، وأدرك صلى الله عليه وسلم أن هناك حاجة عند ابن عمه يريد أن يفصح عنها ، فسأله الرسول الكريم :

— ما حاجة ابن أبى طالب ؟

وبصوت خفيض ، اجاب على ،

ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسول : مرحبا وأهلا .

وأمسك صلى الله عليه وسلم لا يزيد . وطال الصمت ، وانصرف على تنازعه الحيرة والقلق ، اذ أنه كان يريد افصاحا اكثر من رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وزاده قلعا هذا الصمت الذى اعقب كلمتى الرسول :
« مرحبا وأهلا » .

خرج على ووجد فى انتظاره اخوانه واصحابه يترقبون عودته فسألوه :
— ماذا اجابك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
— ما ادرى والله شيئا ، تحدثت الى رسول الله فى الامر ، فما زاد على
قوله لى : مرحبا وأهلا .
— يكفيك من رسول الله احدهما .

وتركه أصحابه ، وقد عاد اليه الأمل والرجاء بعد أن بشره . حتى
إذا جاء الغد ، توجه الى الرسول مرة ثانية ، ووقف غير بعيد منه ، وقال
بصوت يسمعه النبی :

— أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت :
والله مالى من شيء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه .
وتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبشر وخرج الى ربيبه
وابن عمه وقال له :

— هل عندك من شيء ؟
— كلا .

— وابن درعك الحطمية (التى تحطم السيوف)
— عندى .

ودفع على بالدرع الى غلامه ليبيعه فانطلق بها الى السوق ، وبينما
هو يبيعه بأربعمائه درهم اذ رآه عثمان بن عفان فقال :

— هذا درع على فارس الاسلام لا يباع ابدا .
فدفع لغلام على أربعمائه درهم واقسم أن لا يخبره بذلك ورد الدرع
معه .

وقال النبی صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك :
انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدهم من
الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجالسهم التفت عليه السلام الى على
ابن أبى طالب وقال :
— يا على اخطب لنفسك .

فقام على فقال :

— انحمد الله شكرا لأنعمه وإياديه ، واشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجتى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واسعدوا .
قالوا : ما تقول يا رسول الله ؟

— الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهرب اليه من عذابه ، النافذ أمره في أرضه وسمائه ، الذى خلق الخاق مقدرته ونيرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

أن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرنا مفترضا ، يحكما عادلا ، وخيرا جامعنا ، أوشح بها الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » . وأمر الله يجرى الى قضائه وقضاؤه يجرى الى قديره ولكل أجل كتاب يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

ثم أن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أننى زوجت فاطمة من على على أربعمائة مثقال فضة أن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلها مفاتيح الرحمن ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قول هذا واستغفر الله لى ولكم .

وخر على مساجدا شكرا لله . فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب .
ثم أمر لأصحابه يطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :
— انتهبوا .

وجهزت الزهراء وما كان لها جهاز غير سرير مشروط ووسادة من آدم حشوها ليف ونورة من آدم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومخل ومنشفة وقدر ورحاءان وجرتان .

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها بكبش من عند سعد بن معاذ وأصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار ، وقال لعل :

— لا تحدث شيئا حتى تلقانى :

فجاءت بها ام ايمن حتى قعدت في جانب البيت وعلى في جانب آخر .
وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لفاطمة :

— انتنى بماء

فقامت نعثر في ثوبها من الحياء فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لها :

— تقدمي .

فتقدمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر الرسول بلالا أن يشتري طيبا
بثلث الصداق ، فنضج على رأسها وقال :

— اللهم انى عبدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

— اتنوني بماء .

فعلم على الذى يريد فقام وملا القعب فأتاه به . فأخذه وصنع به كما
صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

— اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في شغلهما .

وتلا المعوذتين ثم قال :

— ادخل بأهلك باسم والله والبركة .

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الاب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها
الامر بأنه انما تركها وديعة عند اقوى الناس ايمانا واكثرهم علما وأفضلهم
اخلاقا واعلاهم نفسا .

لم تكن حياة الزهراء في بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب
الى أن توصف بالخشونة والفقر . روى على بن أبى طالب رضى الله عنه ،
قال :

« بتنا ليلة بغير عشاء فأصبحت فخرجت ، ثم رجعت الى فاطمة عليها
السلام ، وهى محزونة . فقلت : مالك ؟ فقالت : لم نتعشى البارحة ولم
نتغد اليوم ، وليس عندنا عشاء ، فخرجت فالتمسيت فأصبحت ما اشتريت
طعاما ولحما بدرهم ، ثم أتيتها به فخبزت وطبخت ، فلما فرغت من
انتاج القدر . قالت : لو أتيت أبى دعوته . فأتيت رسول الله صلى الله

عليه وسلم . وهو مضطجع في المسجد ويقول « اعوذ بالله من الجوع »
فقلت : يا بى أنت وأمى يا رسول الله عندنا طعام ، فهل . . فتوكأ على
حتى دخل والقدر تفور . فقال : « اغرفى لعائشة » فغرفت في صحفة ،
ثم قال : اغرفى لحفصة فغرفت في صحفة حتى غرفت لجميع نسائه
التسع : ثم قال : « اغرفى لأبيك وزوجك فغرفت . فقال « اغرفى فكلى »
فغرفت . ثم رفعت القدر وأنها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله .

كانت الزهراء تقاسى من الشظف والعاقة ، حتى أن عليا رضى الله عنه
اشفق عليه يوما من أعباء البيت ، فتمنى لو كانت عنده خادمة تحمل شيئا
من عبء البيت الثقيل . فانتهاز فرصة موالية ، إذ كان الرسول صلى الله
عليه وسلم قد عاد من إحدى غزواته الظافرة بفنائم وسبايا ، وقال لها :
- لقد شقوت يا فاطمة حتى أسليت صدرى . وقد جاء الله بسبى ،
فأذهبى فالتمسى واحدة تخدمك .

ونعت الزهراء الرحى ، فى وهن وضعف ، ونهضت وهى تقول :
- أقفل ان شاء الله .

وانتظرت بعض ساعة فى دارها ، ريثما تسترد قواها الذاهبة ، وقامت
فتلقت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها ، فلما وآها الرسول ،
هش وبش لها ، ثم سألها :
- ما جاء بك يا بنية ؟

اجابت :

- جئت لأسلم عليك .

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله .

عادت فاطمة من حيث أتت لتنبئ زوجها أنها استحييت أن تطلب من
أبيها شيئا ، فعاد بها على ، وصحبها الى الرسول ، وعرض عنها سؤالها ،
وهى تستمع مطرقة فى حياء .

اجاب رسول الهدى :

- لا والله ، لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم ، لا

ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم من الثمن .

وانصرف على فاطمة شاكرين ، وما يدريان أن شكواها مست قد
الاب الحنون وشغلته نهاره كله .

وجاء الليل . وكان البرد قارسا ، فرقد ، على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، وبينما هما كذلك يحتلان على النوم اذ برسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليهما ، وقد انكششا في غطاءهما مقرورين اذا غطيا راسيهما بدت اقدامهما ، واذا غطيا اقدامهما انكشفت رءوسهما . فهيا للقاء الضيف الكريم . لكنه صلى الله عليه وسلم ، ابتدرهما قائلا :

— «كأنكما .

ثم أضاف في رفق :

— ألا اخبركما بخير مما سألتماني ؟

— بلى يا رسول الله .

— كلمت علمنيهن جبريل ، تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا ، ويحمدان عتريا ، وتكبران عشرا . واذا أويتما الى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين : وتكبران ثلاثا وثلاثين .

ثم ودعهما رسول الهدى ، بعد أن مدهما بهذا الغذاء الروحي ، وافقهما هذه الرياضة النفسية التي تغلب المصاعب ، وتهزم المتاعب .

وقد سمع على بن ابي طالب ، بعد ثلث قرن ، يذكر القصة لبعض اصحابه : ويقول :

— فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن .

فسأله رجل من أصحابه :

— ولا ليلة صفين .

فأجاب على مؤكدا :

— ولا ليلة صفين .

زار الرسول فاطمة يوما وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى نبي الرحمة اشفاقا بها وقال لها :

— تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لتعيم الآخرة .

كانت رضى الله عنها تشكو حينئذ حين ، ويعودها الرسول يواسيها في مرضها ، وذات يوم زارها ، فوجدها مريضة ، فقال لها :

— كيف تجدينك يا بنية ؟

فأجابت بصوت واهن .

— انى لوجعة . وانه ليزيدنى انى مالى طعام اكله .

فاستعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لها مواسيا :

— يا بنية ، اما ترضين انك سيدة نساء العالمين .

ومضت الايام . . والزهراء سعيدة مع الشظف والفاقة . سعيدة بانعطف في قاوب كبار ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء .

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلّت حياة انسان فط من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت الزهراء وربما شكا على . وكان الأب ينولى صلحهما في كل خلاف .

روى ان النبى صلى الله عليه وسلم . رأى ذات مساء وهو يسعى الى دار الزهراء ، بادى الهم والضيق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة :

— يا رسول الله ، دخلت وانت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك .

فأجاب رسول الهدى :

— وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين الى .

وحدث مرة ان ضاق فاطمة بما تجد من شدة زوجها فقالت :

— والله لاشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرجت ، وعلى في أثرها . حتى جاءت أباه فشكت اليه ما أنكرت من زوجها . فتلطف الأب الأكبر في ترضيتها وحملها على الرفق بعلی واحتماله .

قال على وهو يصحب زوجته الى بيتهما :

— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا .

ولكن حدث في حياة الزهراء حادث كاد ان يكون ذا بال . ولم يكن على يظن أنه يقدم به على امر يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . انما كان يعتقد أنه يستعمل حقا خوله اياه الاسلام ، في أن يتزوج من النساء ما يشاء مثني وثلاث ورباع .

فقد خطب على بن أبي طالب بنت أبي جهل الى عمها الحارث بن هشام
ابن المغيرة ، او خطبت هي اليه ، وتوجه بنو هشام الى رسول الله ، وتوجه
على ايضا الى رسول الله ليقص عليه أمر هذه الخطبة ، ويستشيره الرأي
فيها ، فسأله الرسول :

- أعين - - سها تسألني ؟

اجابه على :

- لا ، ولكن اتأمرني بها ؟

فاجابه الرسول :

- لا فاطمة بضعة مني ، ولا احسب الا انها تحزن او تجزع .

فما كان من على رضى الله عنه الا ان قال :

- لا آتي شيئا تكرهه .

وكان خبر الخطبة قد تراسى الى سمع الزهراء ، فذهبت غاضبة الى
ارسل صلى الله عليه وسلم وقالت له :

- يزعم قومك ، أنك لا تفضب لبناتك ! وهذا على ناكح بنت أبي جهل !

كان الموقف يحتاج الى بيان وجلاء ، لم رفض الرسول ، فصعد صلى
الله عليه وسلم المنبر وقال حين تشهد :

- اما بعد فاني انكحت ابا الغاصب بن الربيع ، فحدثني وصدقني . وان
فاطمة بضعة مني ، واني اكره ان يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد .

اراد الرسول ان يبين انه بتصرفه لا يحرم حلالا ولا يحل
حراما فاستطرد :

- واني لست احرم حلالا ، ولا احل حراما ، ولكن والله لا تجتمع
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله .

واوضح عليه السلام امر خطبة على لبنت أبي جهل ، وان اقدامه على
مثل هذا الزواج ليس أمرا هينا ، فقال :

- ان بني هشام استأذنوني في ان ينكحوا ابنتهم عليا بن أبي طالب
فلا أذن ثم لا أذن ثم لا أذن . الا ان يريد ابن أبي طالب ان يطلق ابنتي
وينكح ابنتهم ، فانما هي بضعة مني يربني ما رباها ، ويؤذني ما آذاها .

سمع على كوم الله وجهه كلمات رسول الهدى ، فثاب الى الحقيقة التي كانت غائبة عنه . كلف اقدم على أن يروع أمن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجمع بينها وبين عدو الله في بيت واحد !!

ورجع على عن الخطبة ، واخذ طريقه الى البيت بخطوات وثيدة ودخل على الزهراء فوجدها وحيدة ، تدرف دموع الحزن ، فدنا منها ، واخذ يعتذر لها مستترنيا :

— هبني أخطأت في حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة .

فأجابت الزهراء :

— غفر الله لك يا ابن العم .

واغرورقت مقلتا الزهراء بالدموع تأثرا بحب أبيها . وانفملا بموقفه . ثم قامت للصلاة .

عاد الى البيت صافيا كما كان قبل أن يمر بتلك التجربة المريرة . ومنضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يراجوان من تعاون ومودة . فاطمة في الدار تقوم على خدمة زوجها بقدر ما تتحمل وتطبق ، وعلى الى جانبها يبذل لها من الحذب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح .

وقد آثر الله جل جلاله فاطمة الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث : زينب ورقية ، وأم كلثوم . فكتب لها أن تكون وجسدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة والمنبت الطيب لدوحة الاشراف من أهل البيت .

أبناء فاطمة الزهراء

كان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن مات بنوه ولم يبق منهم إلا فاطمة ، يريد أن يرى أبناءها وفلذة كبدها يدبون على الأرض فيملئون قلبه سعادة وغبطة .

وكان الله جلّت قدرته يعلم بحب الرسول بنبيه وبره بأهله وذويه ، فأكرمه جلّت قدرته إيما أكرام ، فأنزل هذه الآية الكريمة على النبي صلى الله عليه وسلم :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

فدعا الرسول فاطمة وحسنا وحسينا فجعلهم بكساء وعلى بن أبى طالب خلف ظهره ، وقال : هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت أم سلمة ، زوجة الرسول : وأنا معهم يا رسول الله ؟

قال : أنت على مكانك ، أنت الى خير .

وعن أبى الحمراء قال : رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، قال رايت النبي صلى الله عليه وسلم إذا طلع الفجر جاء إلى باب على وفاطمة فقال : « الصلاة الصلاة » . « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وقال تعالى : « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » .

قال ابن عباس : لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قرابة فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه ، قال : « يا قوم اذا أبيتم ان تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ، لا يكن غيركم من العرب اولى بحفظي ونصرتي منكم » .

أحب الرسول أبناء فاطمة الزهراء ، وكان حبه لهم مضرب الأمثال في بر الآباء بالأبناء وتواضع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم . فقد روى عن أسامة بن زيد أنه قال : طرقت باب النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج الى وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو . فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ فكشف

فاذا الحسن على وركه فقال : هذا ابني وابن ابنتي ، اللهم اني احبه فأحبيه وأحب من يحبهما .

وروى عن ابن عباس قال . كان الرسول حاملا الحسن على عاتقه فقال رجل :

— نعم المركب ركبت يا غلام

فقال النبي : وبعم الراكب

وحدث أن الرسول كان بالمسجد يخطب المسلمين ، فاذا الحسن في قميص أحمر يمشى ويعثر فقطع الرسول الخطبة ونزل من المنبر وحمله ووضع بين يديه ثم قال :

— صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت الى هذا الصبي يمشى ويعثر ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعته .

روى الزبير بن العوام أن الحسن جاء الى الرسول وهو ساجد فركب رقبته ، فلم ينزله حتى كان هو الذي نزل . كما قال : لقد رأيته يجيء وهو راكع ، فيفرج له بين رجله حتى يخرج من الجانب الآخر .

حدث حاتم بن اسماعيل عن معاوية بن أبي مزرد عن أبيه عن أبي هريره قال : سمعت أذناي هاتان ، وأبصرت عيناي هاتان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ يكف الحسن وقدماه على قدم الرسول وهو يقول : حزقة حزقة . ترق عين بقعة ، فيرقى الفلام حتى يضع قدميه على صدر الرسول ، ثم يقول له : افتح ، ثم يقبله .

ويقول : اللهم أحبه فاني أحبه .

ومن آيات حب الرسول للحسن ما روى من أن عليا وفاطمة دخلا على الرسول ومعهما الحسن والحسين ، فوضعهما في حجره ، فقبلهما واعتنق عليا باحدى يديه وفاطمة بالآخرى ، فجعل عليهما خميصا سوداء ، وقال :

— اللهم اليك لا الى النار .

أحب الرسول الحسين كما أحب الحسن سواء بسواء ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا ، وحسين سبط من الأسباط .

كما روى عنه انه قال : « للحسن والحسين ريحانتي من الدنيا » .
وقد ضرب صلى الله عليه وسلم اكرم الامثال في رحمة الابوة وبرها
وحديها ، ومن دلائل بره عليه افضل الصلاة والسلام بينيه ، أن الحسن
والحسين كانا يضطرعان بين يديه وهو يقول : هي حسن . فقالت
فاطمة : لم تقول هي حسن ؟ قال : ان جبريل يقول : هي حسين .
ذهب الى ابناء فاطمة الزهراء كل ما في قواد الرسول عليه السلام من
محبة البنين ، وهو مشوق القواد الى الذرية من نسله ، فكان عليه السلام
لا يطيق آذاهم ، ولا يحب أن يستمع الى بكاء احد منهم في طفولتهم ،
على كثرة ما يبكي الاطفال الصغار ، خرج من بيت عائشة رضى الله عنها
فمر على بيت الزهراء فسمع حبيبا يبكي فقال : ألم تعلمي أن بكاءه
يؤذيني ؟

وكان يقول لها : ادعي الى ابني . فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح
حتى يضحكهما ويتركهما صاحكين .

كتب المصطفى عليه السلام الى أبي الحارث اسقف نجران ، وما أن
فص الاسقف الكتاب ، حتى قال لغلمه :
- ادع لي الساعة شرحبيل .

وكان شرحبيل هذا خازن أسراره . وموضع مشورته ، وذهب
الغلام ، وعاد معه شرحبيل ، فقال له :

- جاءني اليوم كتاب من محمد بن عبد الله ، يدعوني فيه لدين
يسمى الاسلام ، ثم يخبرني ان أبيت بين الجزيرة او الحرب .
فقال شرحبيل :

- لست في هذا يا مولاي بصاحب رأي على أنني قد علمت ما وعد
الله به من النبوة في ذرية اسماعيل ، فما تؤمن أن يكون هذا هو ذلك
ولكنني تلت ليس لي في النبوة رأي .

واستشار أبو الحارث ثانيا وثالثا ، فما زادوا عن رأي صاحبهم
شيئا ، فأمر أن تدق النواقيس ، وأن توقد التيران ، وجاء الناس :

وعرض عليهم امر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهوا الى ان يذهب وفد يحاجون الرسول ويجادلونه ، ثم يرجعوا بما يرون ، ومشي وفد نجران الى المدينة ، يرأسهم شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم ، فما ان رأى رسول الهدى حتى قال له .

— يا محمد ، لقد علمت انا نصارى ، ويسرنا ان كنت نبيا ان نسمع ما تقول فى عيسى .

فقال صلى الله عليه وسلم .

— ما عندى فيه شىء يومى هذا ، فاقيموا حتى اخبركم بما يقول الله فى عيسى .

ولما أصبح الغد ، نزل عليه قول الله عز وجل :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من المترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنساءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

نزلت هذه الآية الكريمة ، فخرج المصطفى عليه السلام ، ومعه أحب الناس اليه : على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ودعا وفد نجران ، وردد عليهم ما نزل فى امر عيسى عليه السلام . ثم دعاهم الى المباهلة ان ابو الاستجابة لدعوته ونظر شرحبيل الى آل البيت النبوى . فوجدهم يفيضون بالنور والتقوى والصلاح سيماهم فى وجوههم ، فهابهم القوم . وخافوا ان يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال شرحبيل :

— دعونا نشتور فيما بيننا ، ثم نقضى اليك بما ينتهى اليه رايانا .

ورجع شرحبيل وقال لأصحابه :

ب يا معشر النصارى ، لا تباهلوا محمدا ، فتهلكوا . فانى ارى معه وجرها لو سالوا الله ان يزيل جبلا من مكانه لآزله .

ورفض القوم ان يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع اليه شرحبيل وقال له :

— لن نباهلك ، بل نصطليح على ما تريد .
فعرض صلى الله عليه وسلم عليهم الاسلام فامتنعوا ، فعرض عليهم
الحرب فقالوا :

— مالنا طاقة . فعرض عليهم الجزية . فقالوا : لك ما تريد .
ورجع الوفد الى نجران ، والمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول
لأصحابه :

— والذي بعثنى بالحق لو تباهلوا لأمطر الوادى عليهم نارا .
كانت الزهراء وأبنائها وأهل بيت الرسول ، يفيضون بالنور والإيمان ،
فهم مصابيح الهدى ، شجرة النبوة ، ومهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ،
ومعدن العلم ، يهابهم أعداؤهم ، ويحبهم أنصارهم ، وأحبائهم . ان هيبة
بيت النبوة تعلو وجوههم ، فخشيها وفد نجران ، فأبوا المباهلة والملاعنة
وفضلوا ان يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

الحسن بن علي ريحانة الرسول

الحسن بن علي ، ريحانة الرسول ، ولد في النصف من شهر رمضان
بالمدينة المنورة ، سنة ثلاث من الهجرة .

قالت أم الفضل : يا رسول الله رأيت كأن عضوا من أعضائك في
يأتي .

قال : رأيت خيرا ، تلد فاطمة غلاما فترضعه بلبن قثم . فولدت
الحسن فأرضعته بلبن قثم (ابنها) .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

« لما ولد الحسن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أروني
ابني ما سميتموه ؟ قلت سميته « حربا » قال : بل هو « حسن » فلما
ولد الحسين سميناه حربا ، قال بل هو « حسين » فلما ولد الثالث ،
جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أروني ابني ما سميتموه ؟ قلت :
سميته حربا ، قال : هو محسن .

قال أبو أحمد العسكري : سماه النبي صلى الله عليه وسلم الحسن
وكناه « أبا محمد » ولم يكن يعرف هذا الاسم في الجاهلية .

وبلغ من فرح الرسول بمولد هذا الطفل الميمون أن أمر بحلق رأسه ،
وأن يتصدق بزنا شعره فضه ، كما أمر بنحر كبشين وزعت لحومهما
على الفقراء .

ولد الحسن في هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والإيمان ، وفي هذا
البيت المتواضع الذي أسس على الفضيلة وخشية الله تعالى ، فكان عينيه
قد تفتحا على أكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة .

وما كاد الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم
يعلمه مما علمه الله ، وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد . روى عن الحسن
أنه قال : « علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر :
اللهم أهديني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت . وتولني فيمن توليت ،

وبارك لى فيما اعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فانك تفضى ولا يقضى عليك وانه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

وقد اخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ييث في قلب الحسن الفاضل حبه الحق والعدل والايثار ، وينفخ في روح الصبي القناعة والرضى . فقد روى عن الحسن انه قال : اذكر من رسول الله انى اخذت ثمرة من تمر الصدقة فتركها في فمى فنزعها بلعابها ، وجعلها في تمر الصدقة . فقيل : يا رسول الله ، ما كان عليك من هذه الثمرة ؟

قال : انا آل محمد لا تحل لنا الصدقة .

وكان يقول : دع ما يريبك الى ما لا يريبك . فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة .

اختار الرسول صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى والحسن لم يجاوز الثامنة من عمره ، ولكنه رغم هذه السن الفضة ، وعى الشيء الكثير وتأدب بأداب الرسول الكريم وتخلق بأخلاقه .

ثم بويح أبو بكر الصديق بالخلافة وكان الحسن ما زال يرعى الصبا ، ولم يذكر التاريخ شيئاً عن حياته في عهد أبى بكر ولا في عهد عمر بن الخطاب ، وان كنا نعتقد انه كان ينشأ كما ينشأ فتية الصحابة وأبنائهم : يحفظ القرآن ، ويروى الحديث ويتأدب بأداب السنة الشريفة .

فلما آلت الخلافة الى عثمان بن عفان . كان الحسن قد بلغ العشرين ، اكتملت رجولته ، وبلغ في الأدب وسمو الخلق الغاية ، وأشرف في العلم على النهاية ، فلما هم عثمان بفتح طبرستان أعد لذلك جيشاً بقيادة سعيد ابن العاص ، فانخرط الحسن في سلكه ومعه جلة الصحابة رضوان الله عليهم : عبد الله بن العباس ، وعمرو بن العاص ، والزبير بن العوام ، لانه أحب ان ينال ثواب الغزو في سبيل الله وأجر السعى لاعلاء كلمة الحق . وقد اضطر ملك جرجان الى طلب الصلح من سعيد بن العاص ، وعاد الجيش ظافراً ، وآب الحسن الى المدينة يحيا حياته الأولى ، من اقبال على القرآن والحديث والتفقه فيهما .

ثم امتحن المسلمون بفتنة عثمان وحوصر في داره بالمدينة ، فبعث على بن أبى طالب رضى الله عنه بالحسن الى دار عثمان ليحميه ويشارك مع شباب قريش في الدفاع عنه . ولكن عثمان قتل واجتاحت الفتنة العالم الاسلامى،

وبويع على بالخلافة وانتقل الى الكوفة . ولا شك ان الحسن والحسين قد رحلوا الى هذه المدينة ليكونا بجوار أبيهما .

لم تصرف الخلافة وأبعتها عليه بن أبي طالب عن أخذ الناس بالسوية ، لا فرق في ذلك بين قريب أو بعيد . فقد كان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما ، فكانا يعيشان في الكوفة عيشة الزاهد المتقشف بعدا عن الدنيا ، وإشارا للأخرة ونوابها . يقول ابن عبد البر في « الاستيعاب » :

« كان على إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا الا قسمه ، ولا يترك في بيت المال منه الا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك . ولم يكن يستأثر من الفئء بشيء ولا يخص به حميما ولا قريبا ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والأمانات » .

فلما قتل على بن أبي طالب رضي الله عنه لثلاث عشرة بقية من رمضان سنة ٤٠ للهجرة بايعه أهل العراق ، وبقي نحو نحو سبعة أشهر خليفة للعراق وما يليه من خراسان والحجاز واليمن وغيرها . لم تثبت خلافة الحسن امام قوة معاوية بن أبي سفيان . فآثر أن يتنازل عن الخلافة حقبا لدماء المسلمين . وكان يقول : ما أحببت أن ألي أمر أمة محمد على أن يهراق في ذلك محجمة دم .

روى عن الحسن أنه قال لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما :

— اني رأيت رأيا أحب أن تتابعني عليه .

— ما هو ؟

— رأيت أن أغمد الى المدينة فأنزلها وأخلي الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل .

— جزاك الله خيرا عن أمة محمد .

وقد خطب الحسن في وفود أهل العراق فقال :

« انكم بايعتموني على أن تسألوا من سألني وتعاربوا من حاربني . واني قد بايعت معاوية فاسمعوا وأطيعوا !! » .

صبح معاوية صاحب السلطان المطلق في العالم الاسلامي كله ، وقد أثار عن الحسن أنه قال يوم دخل معاوية الكوفة في شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ :

١٠ الا ان اكيس الكيس التقى وان اعجز العجز الفجور . وان هذا الامر الذى اختلفت انا ومعاوية فيه ، اما ان يكون أحق به منى واما أن يكون حقى تركته الله عز وجل لاصلاح امة محمد وحقن دمائكم » . ثم المفت الى معاوية وقال :

ـ « وان ادرى لعله فتنة لكم متاع الى حين » .

كان الحسن ورعا ، ذا سكينه ووقار وحشمة ، يكره الفتن وازاقة الدماء ، ما سمعت منه كلمة فحش قط .

دعاه ورعه وفضله الى ترك الملك والدنيا ورغبة فيما عند الله تعالى ، وكان لا يحج الا ماشيا ، وكان يقول :

ـ انى لاستحى من ربى ان القاه ولم امش الى بيته .

وكان جوادا تقيا يصوم النهار ويقوم الليل .

وقد وصفه محمد بن الحنفية وصفا دقيقا فقال :

ـ « انت عقبه الهدى ، وخلف اهل التقوى ، وخامس اصحاب

الكساء . غدتك بالتقوى اكف الحق ، وارضعتك ثدى الايمان ، وريبت فى حجر الاسلام » .

ورث الحسن والحسين عن جدهما واييهما فصاحة اللسان ، وقوة

الجنان وحضور البديهة والحلم والكرم .

سأله رجل صدقة ولم يكن عنده ما يسد به رمقه فاستحى أن يرده فقال : الا ادلك على شيء يحصل لك منه بر ؟ قال : بلى ، فما هو ؟ قال : اذهب الى الخليفة فان ابنته توفيت وانقطع عليها وما سمع من احد تعزية . فعزه بقولك له : « الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها ولا هتكها بجلوسها على قبرك » ، فذهب الرجل وفعل ما قال له : فذهب عن الخليفة حزنه وأمر له بجائزة وقال له : اكلامك هذا ؟ قال : لا . بل كلام فلاه .

قال : صدقت فانه معدن الكلام الفصيح ، وأمر له بجائزة أخرى .

ان من يلوذ بأهل البيت ، لا يرد خائبا بل ينال ما يريد وفوق ما يريد ، فانهم منبع الكرم والجود والاحسان . قد كان فى استطاعة الحسن أن يعتذر لمن سألته بأنه ليس لديه شيء يعطيه ويكون عذره وقتئذ مقبولا ،

ولكنه التمس له طريقة يفرج بها كرب السائل فأشار عليه بما تقدم فنال الخير الكثير .

خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، رضى الله عنهم حجاجا . فلما كانوا ببعض الطريق جاعوا وعطشوا وقد فانتهم ائصالهم ، فنظروا الى خباء فقصدوه فإذا فيه عجوز ، فقالوا : هل من شراب ! فقالت نعم . فأتاخوا بها وليس عندها الا شويهة . فقالت : احلوهما واشربوا لبنهسا ، ففعلوا ذلك . فقالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : هذه الشويهة ما عندي غيرها ، فانا أقسم عليكم بالله الا ما ذبحها أحدكم حتى أهيبء لكم الحطب فاشووها وكلوا . ففعلوا ذلك . واقاموا عندها حتى أبردوا . فلما ارتحلوا من عندها ، قالوا لها : يا هذه ، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين ، فالى بنا فانا صانعون بك خيرا ان شاء الله تعالى . ثم ارتحلوا . وأقبل زوجها فأخبرته الخبر فغضب وقال : ويحك أتدبحين ثانا لنوم لا نعرفهم ثم تقولين نفر من قريش !

ثم بعد دهر طويل أصابت المرأة وزوجها السنة فاضطرتهم الحاجة الى دخول المدينة فدخلا يلتقطان البعر فمرت العجوز في بعض سكك المدينة ومعها مكتلها تلتقط فيه البعر ، والحسن رضى الله عنه جالس على باب داره ، فنظر اليها فعرفها فناداها وقال لهسا : يا أمة الله . هل تعرفيننى ؟ فقالت : لا . فقال : انا أحد ضيوفك يوم كذا ، سنة كذا في المنزل الفلانى .

فقالت : بأبى انت وامى ، لست أعرفك !

قال : فان لم تعرفيننى ، فانا أعرفك . فأمر علامه فاشتري لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاه ألف دينار وبعث بها مع غلامه الى أخيه الحسين رضى الله عنه . فلما دخل بها الغلام على أخيه الحسين عرفها وقال : بكم وصلها أخى الحسن ؟ فأخبره فأمر لها بمثل ذلك . ثم بعث بها مع الغلام الى عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما . فقال : والله لو بدأت بى لاتعبتهما وأمر لها بألفى شاة وألفى دينار . فرجعت وهى أغنى الناس .

كان الحسن رضى الله عنه حاد الذكاء حاضر البديهة ، قوى الحجة ، معدن الفهم ، وينبوع العلم ، اغتسل رضى الله عنه وخرج من داره فى بعض الايام وعليه حلة فاخرة ووفرة ظاهرة ومجاسن سافرة فعرض له فى طريقه شخص من فقراء اليهود وعليه مسح من جلود ، قد انهكته العلة ،

ورمى به القلة والدلة ، وشمس الظهيرة قد شوت شواء وهو حامل جرة ماء على قناه .

فاستوقف الحسن رضى الله عنه ، وقال :

- يا ابن رسول الله ، سؤال ؟

قال : ما هو ؟

قال : جددك يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . وانت مؤمن وأنا كافر . فما ارى الدنيا الا جنة لك تنعم بها ، وما اراها الا سجنا على قد اهلكنى ضيرها واجهدنى فقرها .

قال الحسن : يا هذا ، لو نظرت الى ما اعد الله لى فى الآخرة لعلمت انى فى هذه الحالة بالنسبة الى تلك سجن . ولو نظرت الى ما اعد الله لك فى الآخرة من العذاب الأليم لرأيت انك الآن فى جنة واسعة » .

عرف اليهود منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالدس وصنع الأكاذيب والنزعات وتشكيك المسلمين فى عقائدهم وقد حاربهم الرسول فى المدينة واجلاهم عنها لخيانتهم وتقضهم اليهود والمواثيق . وقد أسلم بعضهم عن عقيدة صحيحة لكن بقى اكثرهم حانقا على المسلمين . وكان رأس المنافقين عبد الله بن ابى سلول الذى راح يبيت الفتنة ، ويدبر المؤامرات ضد الرسول والذين آمنوا معه ، وعبد الله بن ساء الذى صار يتنقل فى البلدان وينشر الدعاية ضد عثمان بن عفان رضى الله عنه ويحض على الثورة .

وفى هذه القصة التى ذكرناها نجد ان هذا اليهودى يعترض على الحسن لما رآه يرتدى ملابس فاخرة ويذكر له حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . فكيف يتنعم الحسن فى الدنيا وهو مؤمن ويشقى اليهودى وهو كافر ؟ ولماذا لا يكون حالهما بالعكس اذا كان حديث رسول الله صادقا ؟ سؤال يريد به احراج الحسن من جهة وتشكيكه فى حديث الرسول من جهة أخرى . لكن الحسن رضى الله عنه كان حاضر البديهة . فأجاب بجواب مقنع مفحم حيث أوضح له ان حالته التى يشكو منها انما هى كالجنة بالنسبة الى عذاب الآخرة الذى اعد للكافرين وان حالة الحسن التى ظنها نعيما انما هى كالسجن بالنسبة الى نعيم الجنة الذى عد للمؤمنين .

توفي الحسن سنة تسع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل انه مات مسموما . دخل الحسين على الحسن رضى الله عنهما في مرضه فقال :

— يا أخى انى سقيت السم ثلاث مرات . فلم أسق مثل هذه المرة ، انى لفظت كبدى .

قال الحسين . من سقاك يا أخى ؟

— ما سؤالك عن هذا ؟ تريد ان تقاتلهم ، كلهم الى الله .

وقد اختلف المؤرخون في سبب موت الحسن ، فزعم قوم انه زج ظهر قدمه في الطواف بزج مسموم ، وقال آخرون . ان معاوية دس الى جعدة بنت الاشعث بن قيس ان تسم الحسن ويزوجها يزيد ، فسمته وقتلته . فقال لها معاوية : ان يزيد منا بمكان ، وقد يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ! وعوضها عنه مائة الف درهم .

١١ حضرت الحسن الوفاة قال لأخيه الحسين :

— قد كنت طلبت الى عائشة اذا مت ان تأذن لى فادفن فى بيتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاطلب ذلك اليها . فان طابت نفسها فادفنى فى بيتها . وما اظن الا القوم سيمنعونك اذا أردت ذلك . فان فعلوا فلا تراجعهم فى ذلك وادفنى فى بقيع الفرقد .

فلما مات الحسن أتى الحسين عائشة رضى الله عنها فطلب ذلك إليها فقالت : نعم وكرامة فبلغ مروان فقال : والله لا يدفن هناك أبدا ، منعوا عثمان من دفنه فى المقبرة ويريدون دفن الحسن فى بيت عائشة ، فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه فى السلاح وتسليح بنو أمية ايضا ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية ، لولا كلمة من عبد الله بن جعفر لابن عمه الحسين ، قال :

— عزمت عليك بحقى الا تكلم بكلمة .

ومضى بابن عمه الحسين الى البقيع حيث ثوت أمه السيدة فاطمة الزهراء .

حدث ثعلمة بن أبى مالك قال :

— شهدت الحسن يوم مات ودفن فى البقيع ، فلقد رأيت البقيع ، ولو طرحت فيه ابرة ما وقعت الا على رأس انسان .
عاش الحسن بن على زاهدا ، ومات زاهدا ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

الحسين بن علي

سبط الرسول

الحسين بن علي بن أبي طالب ، يكنى أبا عبد الله سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وريحانته ولد بالمدينة المنورة ، لخمس خلون من شهر شعبان سنة أربع من الهجرة . وقد أمر الرسول بأن يتصدق بزنة شعره فضة ، كما أمر بنحر كبشين وزعت لحومها على الفقراء .

ولقب بالقباب أشهرها : الزكي . الرشيد . الطيب . الوفي . السيد . المبارك . والتابع لرضا الله والسبط .

وكانت أمه فاطمة الزهراء ترقصه وتقول :

ان بنى شبه النبي ليس شبيها بعلي

وكان الحسن رضي الله عنه شبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الصدر الى الرأس ، والحسين اشبه به صلى الله عليه وسلم من الصدر الى ما سفل منه . وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، واسع الجبين . كث اللحية ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، رحب الكفين ، والقدمين ، رجل الشعر ، متماسك البدن ، أبيض مشربا بحمرة ، حسن الصوت .

شبه الحسين في بيئة زكية كما شبه اخوه الحسن ، كانا صبيين في الخير والفضل ووفرة الايمان ، وقد رضعوا من لبان التقى ورييا في كنف الهداية والايمان .

نشأ الحسين كما نشأ الحسن في حجر النبوه الطاهرة ، تتفتح اكمامه على نور الهداية ، وتكتحل عيناه بمشهد اكرم الخلق ، يلتقط منه ما يسمع من حديث افوح من المسك ، وأندى من الندى ، غذته الزهراء ونشأه على ورعاه المصطفى عليه السلام . فما كاد ينطق حتى اخذ يتعلم الادب ، وحفظ القرآن والصلاة والصوم . يحضر مجالس الصحابة ويدب في مهابط الوحي . ترمقه العيون ، وتتبعه الاحداق في أعجاب وحب واعزاز .

قبض الرسول صلى الله عليه وسلم والحسين لم يزل صبيا لم يشب عن الطوق .. وبويح ابو بكر الصديق وهو لم يزل غص الاهاب ، ثم ماتت

امه فاطمة الزهراء ، فذاق مرارة اليتيم ، ولكن بر ابيه وحده عليه ورعايته
اياها قد انساه ما يعانیه من حزن عميق .

ولما ولى عمر بن الخطاب امر الخلافة لم يكن الحسين قد بلغ الحلم
بعد ، فلما بويج عثمان بن عفان كان قد جاوز العشرين من العمر ، فأضحى
فتى فى حكمة الشيوخ يافعا فى زهد النساك وتعبدهم ، عالما فى وقار العلماء ،
أخذ من العلم بقسط وافر واغترف مناهل الفضائل ومكارم الاخلاق . فلما
دعا الداعى الى الجهاد فى سبيل الله ، لم يتردد ، بل كان فى طليعة الذين
ساروا خفايا غير ثقال للاشتراك فى الجيش الذى سار لفتح طبرستان
بقيادة سعيد بن العاص .

ولم يركن الحسين الى الدعة والترف ولم يأخذ نفسه بما يأخذ به
الشبان انفسهم من لهو او اثار عافية ، بل سارع الى القتال غير هيباب
ولا وجل .

وعندما حاصر الثوار عثمان بن عفان فى داره بالمدينة ، هب على بن ابي
طالب يدافع عنه ، فأرسل ابنه الحسن والحسين يدودان عنه العدوان ،
ولكنهما لم يستطيعا لارادة الله تعالى دفعا فقد اغتيل عثمان بن عفان رضى
الله عنه ، وبويج على بن ابي طالب كرم الله وجهه وانتقل الى الكوفة فانتقل
معه ولداه الحسن والحسين . وقد شهد الحسين مع ابيه موقعة الجمل ،
وحارب معه يوم صفين ، واسهم فى قتال الخوارج .

ولما قتل على بن ابي طالب رضى الله عنه واخذت البيعة للحسن ، كان
الحسين فى طليعة من بايعه وايده وشد أزره ونصره ، فلما نزل الحسن لمعاوية
عن الخلافة واثار العافية لم يوافق الحسين واشار عليه بالقتال ، فغضب
الحسن وقال له : والله لقد هممت ان اسجنك فى بيت وأطعن عليك بابي ،
حتى اقضى بشأني هذا وافرغ منه ثم اخرجك . فلم يراحه الحسين بعدها
وآثر الطاعة والسكوت ، وهذا مثل كريم يضربه الحسين فى آداب الاسرة .

لما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن ابي
سفيان فكتب يزيد بن معاوية الى الوليد « من يزيد امير المؤمنين الى الوليد
ابن عتبة ، اما بعد ، فان معاوية كان عبدا من عباد الله اكرمه الله واستخلفه
وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات باجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودا
ومات برا تقيا والسلام .. »

ثم اضاف : اما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير
بالبيعة اخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام .

فلما قرا الوليد للحسين الكتاب ونعى اليه معاوية ، قال الحسين :
انا لله واليه راجعون ورحم الله معاوية ، اما البيعة فان مثلي لا يعطى بيعته
سرا ولا اراك تقنع بها منى سرا .

قال : اجل .

فقال الحسين : فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم
فكان الامر واحدا . .

وكان الحسين رضى الله عنه قد عول على ترك المدينة الى مكة ، كما تركها
قبله بليتين عبد الله بن الزبير ، دون مبايعة يزيد ، فخرج منها ومعه جل
اهل بيته واخوته وبنو اخيه . فلما بلغ اهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا
امتناع الحسين عن بعة يزيد ونزوله مكة اجتمعت الشيعة وكتبوا اليه
كتبا جاء فيها :

« انه ليس علينا امام فأقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الحق . ثم
سرحوا عدة رسل بالكتب اليه ، وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرأ
الكتب ويسأل الرسل عن الناس . ولبت في مكة على هذه الحال اربعة
اشهر . ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابي طالب وامره بالمسيره الى
الكوفة فان رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل اليه بذلك .

خرج مسلم حتى اتى المدينة ، فأخذ منها دليلين ، فهرا في البرية ،
فأصابهم عطش ، فمات احد الدليين ، فقدم الكوفة ، ونزل على رجل يقال
له « عوسجة » فاما علم اهل الكوفة بقدومه دنوا اليه ، فبايعه منهم اثنا
عشر ألفا على ذلك ، فقام رجل من انصار يزيد بن معاوية الى النعمان بن
بشير والى الكوفة فقال :

— انك رجل ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد .
فقال له النعمان :

— لان اكون ضعيفا في طاعة الله أحب الى من أن اكون قويا في معصيته .
ما كنت لاهتك ستره الله .

وعزل يريد النعمان وولى عبيد الله بن زياد مكانه .

لم يعتبر الحسين بما فعله اهل الكوفة مع ابيه واخيه من قبل ، اذ
عزم على الخروج الى العراق ولما رأى عبد الله بن العباس اصرار الحسين
على الخروج قال له :

اتسیر الى قوم قد قتلوا اميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ؟ وان كانوا انما دعسوك اليهم وامير عليهم قاص لهم وعماله تجبى بلادهم فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ولا آمن عليك ان يفروك ويكذبوك ويخالفوك ويخدلوك ، وان يستنغروا اليك فيكونوا اسد الناس عليك .

فقال له الحسين : واني استخير الله وانظر ما يكون .

ابي الحسين الا ان يمضى الى غايته ، فقال له عبد الله بن العباس :

— فان كنت سائرا ، فلا تسر بنسائك ، وصبيتك ، فاني لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونسائه وولده ينظرون اليه .

لم ياتفت الحسين الى نصيح الناصحين ، بل سار الى الكوفة في فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلا ، فلما اقترب منها ، بلغه نبأ مصرع مسلم ابن عقيـل فقال له بعض اصحابه :

— نشهدك الله الا رجعت من مكانك ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر بن نتخوف ان يكونوا عليك .

فونب بنو عقيـل وقالوا :

— والله حتى ندرك ثارنا او نتذوق ما ذاق مسلم .

فقال الحسين : لا خير في العيش بعد هؤلاء .

فقال له بعض اصحابه :

— انك والله ما انت مثل مسلم بن عقيـل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس

اليك أسرع .

سار الحسين حتى وصل الى كربلاء ، وتتابع ارسال الجيوش لقتاله ، والتقى الحسين بجيش عبيد الله بقيادة الحر بن يزيد في الف فارس ، وكانوا يلازمونه ويصدونه عن كل جهة الا نحو الكوفة مفر اميرهم عبيد الله ابن زيادة ، فقال يعظهم :

« ايها الناس : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان . فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول كان حفا على الله ان يدخله مدخله ، الا وان هؤلاء لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالغي واحلوا حرام الله وحرموا

«لأله ، وأنا أحق من غري وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم واهلي من اهلكم فلكم في أسوة ، وإن لم تفعلوا ، ونقضتم عهدى وخلعتم بيعتى ، فلعمري ما هى لكم بنكيره والمرور من اغتر بكم ، فحفظكم اخطائكم ونصيبكم ضييعتم » ومن نكث، فانما ينكب على نفسه « ، وسيغنى الله عنكم والسلام » .

وفي اليوم التالي لنزوله كربلاء ، جاء عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة في أربعة آلاف مقاتل ، موفدا من عبيد الله بن زياد لقتاله ، ثم انضم الى جيشه الحر بن يزيد ، فلما سئل الحسين عما جاء به ، قال رضى الله عنه :

— كتب الى اهل مصركم هذا ان اقدم عليهم فأما اذكرهوى فانى انصرف عنكم الى مكة .

فكتب عمر الى ابن زياد بذلك ، ثم التقى الحسين وعمر مرارا ، فكتب عمر الى عبيد الله بن زياد : « أما بعد ، فان الله اطفأ النائرة وجمع الكلمة وقد اعطانى الحسين أن يرجع الى المكان الذى اقبل منه ، أو أن نسيره الى أى نحر من الثغور شئنا أو يأتى يزيد امير المؤمنين فيضع يده فى يده . وفى هذا لكم رضا وللامة صلاح » .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه . نعم . قبلت . ولكن شعر بن ذى الجوشن رفض هذا الراى ، وقال له :

اتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ، والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكون أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك .

أخذ ابن زياد برأى شمر فأرسله بكتاب الى عمر جاء فيه :

« ... انظر فان نزل الحسين وأصحابه عن الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ، وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون . فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق شاق قاطع ظلوم ، فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام » .

جمع الحسين رضى الله عنه أصحابه وقال :

— اثنى على الله احسن الثناء واحمده على السراء والضراء ، اللهم انى
أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة وعلمتنا
القرآن وفقهتنا في الدين فاجعلنا لك من الشاكرين ، اما بعد :

فانى لا اعلم اصحابا اوفى ولا خيرا من اصحابى ، ولا اهل بيت ابر ولا
أوصل من اهل بيتى ، فجزاكم الله جميعا خيرا ، لقد بررتم وعاونتم ، والقوم
لا يريدون غيرى احدا وانى لأظن يومنا من هؤلاء الاعداء غدا ، وانى قد
أذنت لكم جميعا فانطلقوا في حل ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد
غشيكم فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم .

فقال له اخوته وابناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر :

— لم نفعل هذا لنبقى بعدك لا أرادنا الله ذلك أبدا ، وبداهم بذلك
العباس ابن على واتبعته الجماعة فتكلموا بمثله وقالوا :

— معاذ الله . وما نقول للناس اذ رجعنا اليهم ؟ نقول ترتنا سيدنا
وبنى عمومنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ،
ولم تضرب بالسيف . ولا ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل نفديك بأنفسنا
وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك . فقبح الله العيش بعدك .

وقام اليه مسلمة بن عوسجة الأسدى فقال :

— انحن نتخلى عنك ولم نعدر الى الله في أداء حقك ، أما والله لا أفارقك
حتى اكسر في صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما يثبت قائمه يدي ، ولو
لم يكن معى سلاحى لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .
وتكلم أصحاب بنحو هذا ،

وكان على بن الحسين تلك العشية مريضا تمرضه عمته السيدة زينب
فسمع أباه وهو في خباء له وعنده جوين مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه
ويصلى والحسين يقول :

يا دهر اف لك من خليل
كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الأمر الى الجليل
وكل حى ، سالك السبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثا فأدرك ما اعتزمه والده ولزم السكوت ، وسمعته زينب بنت الزهراء فلم تملك ان وثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه ونادت :

— وائتلاه ! ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ، ماتت أمى فاطمة ، وعلى أبى ، وحسن أخى ، يا خليفة الماضى ، وثمان الباقي .

فنظر اليها الحسين وقال :

— يا أخية لا يدهبن بظلمك الشيطان .

قالت :

— يا أبى ! أنت وأمى يا أبا عبد الله ، نفسى فذلك !

قال الحسين :

— لو ترك القطا ليلا لنام

فقال :

— واولئناه ! افتفصبك نفسك اغتصابا فذلك اقرح لقلبي وأشد على نفسي وأطول لحزنى ، وخرت مغشيا عليها .

فقام اليها الحسين فصب الماء على وجهها ، وقال :

— اتقى الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وأن كل شئ هالك الا وجه الله . أبى خير منى وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة . فعزأها بهذا ونحوه ، وقال لها :

— يا أخيه أنى أقسم عليك لا تشقى على جيبا ، ولا تخمشى وجهها ، ولا تدعى على بالويل والثبور . ان أنا هلكت .

ثم خرج الى أصحابه فأمرهم ان يقربوا بيوتهم من بعض وان يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، ويكونوا بين يدى البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد ، والبيوت عن يمينهم ، وعن شمالهم ومن ورائهم ، ورجع الى مكانه فقام الليل كله يصلى ويستغفر ، وقام أصحابه كذلك يصلون ويستغفرون ويدعون . وخبول حرس عدوهم تدور من ورائهم ، تحرسهم حتى لا يفر أحد منهم ، وكأنها كان يريد القوم قتلهم كلهم ، والقضاء عليهم جميعهم .

وفي صباح اليوم التالي دارت المعركة الرهيبة بين الآلاف والعشرات...
وجعل أصحاب الحسين رضي الله عنه ، يتقدمون رجلا بعد رجل فقاتلواهم
قتالا مرا ، ولما استشهد أصحاب الحسين ، برز شباب بنى هاشم بدورهم ،
بدافعون عن والدهم ، وعمهم وابن عمهم ونسيبهم ، بقلوبهم وصدورهم .
وكان على بن الحسين رضي الله عنه ، من أصبح الناس وجها ، واكملهم
دبا . فتقدم للقتال قبل غيره ، وهو ما يزال في التاسعة عشرة من عمره ،
شد على الجيش وهو يقول :

انا على بن الحسين بن علي . نحن ورب البيت اولى بالنبي
تا الله لا يحكم فينا ابن الدمي

فعل ذلك مرارا ، يحمل فيرد من امامه من شدة حملته حتى صدمه
مرة بن منقذ العبدى فطعنه فصرعه ، فلما رآه الحسين قال :
- قتل الله قوما قتلوك يا بنى ! ما أجراهم على الرحمن وعلى انتهاك
حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء .

واقبل الحسين فقال :

— احموا أخاكم . . فحملوه من مكانه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط
الذي كانوا يقاتلون امامه . واندفعت من خيام النساء امرأة كانها الشمس
طالعة ، تنادى في جزع :

— يا أخياه ! ويا ابن أخياه ! . واكبت عليه . فجاءها الحسين فأخذها
بيدها فردها الى الفسطاط فسأل عنها من لا يعرفها ، فقيل :
— هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله .

وتتابعت قتلى بنى هاشم فسقط عبد الله بن مسلم بن عقيل ، وعون
ابن عبد الله بن جعفر ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر ، وعبد الرحمن بن عقيل
ابن ابي طالب ، وجعفر بن عقيل .

ثم خرج القاسم بن الحسن بن علي ويده السيف ، وهو غلام كان وجهه
شقة القمر ، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى ف ضرب رأسه
بالسيف ، فسقط القاسم على الأرض لوجهه وهو يقول :

— يا عماء !

فانقض الحسين عليه كالصقر ثم شد شدة ليث اغضب ، وضرب عمرو
بالسيف فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق .

وحملت خيل القوم ليستنقدوا عمروا فاستقبلته بصدورها وجالت عليه بفرسانها فوطئته حتى مات .

وانجلت الغبرة والحسين واقف على راس القاسم ، وهو يفحص برجليه ، والحسين يقول :

— بعدا لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك .

ثم قال :

— أعز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك !

ثم احتمله على صدره حتى ألغاه مع ابنه على ومن قتل معه من أهل بيته .

رجع الحسين الى فسطاطه . فتقدم اليه شمر بن ذى الجوشن برجاله ، وهو يحرضهم عليه . وأقبل الى الحسين عبد الله بن الحسن بن على وهو غلام لم يراهق فقام الى جنبه وقد أهوى بحسر بن كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام :

— يا ابن الخبيثة أقتل عمى !؟

فضربه بالسيف فألقاه الغلام بيده ، فقطعها الى الخلد ، نصيب غلام فاعتنقه الحسين وقال له :

— يا ابن أخى ، اصبر على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير ، فان الله يلحقك بآبائك الصالحين .

ورفع الحسين بصره الى السماء يناجى الله قائلا :

— اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وأمنعهم بركات الأرض ، اللهم فان نعمتهم الى حين ففرقهم/ فرقا ، واجعلهم طرائق قديدا ، ولا ترض عنهم الولاية أبدا ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقتلونا .

ثم قاتل من أمامه فانكشفوا عنه وبقي الحسين في ثلاثة رهط أو أربعة . ولما قتلوا وبقي الحسين وحده ، وقد أثنى بالجراح في رأسه وبدنه ، حمل الناس عليه عن يمينه وشماله ، فحمل على الذين عن يمينه ، فتفرقوا ، ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا ، فما رأى رجل قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا ولا أمضى جنانا ، ولا أجرا مقدما منه . اذ كانت الرجالة لتكشف عن يمينه وشماله كلما شد عليها ، وبينما هو كذلك اذ خرجت زينب وهى تقول :

— ليت السماء انطبقت على الأرض . ونظرت الى عمر بن سعد وقالت :

— يا عمر ، أيقبل أبو عبد الله وأنت تنظر !؟

قدمت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته ، وصرف وجهه عنها والحسين يقاتل قتال الفارس الشجاع ، يتقى الرمية ، ويشد على الخيل وهو يقول :

— اعلی قتلی تجتمعون ! أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منی . وأيم الله لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله ان لو قد قتلتموني لقد القى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

ومكث طويلا من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب أن يكفيهم هؤلاء . فلما رأى ذلك شمر بن ذى الجوشن استدعى الفرسان فصاروا في ظهور الرجاة وأمر الرماة أن يرموه ، فرشقوه بالسهم فأحجم عنهم فوقفوا بازائه فنادى شمر في الناس :

— ويحكم ! ماذا تنتظرون بالرجل ! اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم !!

فحملوا عليه من كل جانب ، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كفه اليسرى فقطعها ، وضربه آخر على عاتقه فكبا منها لوجهه فانصرفوا عنه ، وهو يقوم ويكبو ، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعي ، فطعنه بالرمح فصرعه ، وبدر اليه خولى بن يزيد الأصبحي فنزل ليحتز رأسه فأرعد .

فقال له سنان :

— فت الله في عضدك ، ونزل اليه وذبحه ، واحتز رأسه ثم دفعه الى خولى وسلب القوم الحسين ما كان عليه وتركوه مسجى في العراء .

وانتهب اناس حمله وابله واثقاله ومتاعه ، وسلبوا نسائه ، حتى ان كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها ، حتى تطلب عليه ، فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة واربع وثلاثون ضربة غير الرمية .

روى الدم الزكي ارض العراق ، واهدر دم اهل البيت ، ونكل بهم ، ولما يمضي على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خمسون سنة ، روى ابو خالد الأحمر قال :

دخلت على أم سلمة وهي تبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟

قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : شهدت قتل الحسين .

وروى عن ابن عباس أنه قال :

- رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرم النائم وهو قائم ،
اشعث اغبر ، بده قارورة فيها دم . فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول
الله ! ما هذا الدم ؟

قال : هذا دم الحسين لم أزل ألتقطه منذ اليوم .

كان لمقتل الحسين رضى الله عنه فى الأرض كربلاء أثر عميق فى اذكاء نار
التشيع فى نفوس الشيعة انصار على بن أبى طالب رضى الله عنه وأولاده
من بعده ، وتوحيد صفوفهم وكانوا قبل ذلك متفرقى الكلمة ، مشتتى
الاهواء ، اذ كان التشيع قبل مقتل الحسين رأيا سياسيا نظريا ، فلما قتل
الحسين ، امتزج التشيع بدمائهم واصبح عقيدة راسخة فى قلوبهم .
وقد ظهرت طائفة التوابين الذين يدعون الناس للاخذ بثار الحسين ،
وينظّمون الفصائد فى رثائه وتحريض الناس على القتال ، من ذلك قول
عبد الله بن الأحمر .

سحوت وقد صحوا الصبى والعواديا
وقلت لأصحابى : أجيئوا المناديا
وقولوا له اذ قام يدعو الى الهدى
وقيل الدعى : ليك ليك داعيا
الا وانه خير الناس جدا ووالدا
حسنا لاهل الدين ان كنت ناعيا
وأضحى حسين للرماح دريئة
وغودر مسلوبا لدى الطف ثاوية
فيا ليتنى اذ ذاك كنت شهدته
فضاربت عنه الثنائين الاعاديا

قتل الحسين رضى عنه فى العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ .
فأرسل الى يزيد بن معاوية الذى رد الرأس الشريف الى الجسد الطاهر ،
ودفنا فى دمشق ، ثم نقلت فى عهد الفاطميين الى عسقلان بفلسطين ، وكان
الفاطيون قد اسولوا عليها حين فتحوا بلاد الشام .

فلما تقلد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة ، أخرج رأس
الحسين ، وعطره ، وحمله على صدره ، وسعى به ماشيا ، الى أن أحله فى
مقره الذى هو فيه بالقاهرة ، حيث المشهد الحسينى .

السيدة زينب

عقيلة بنى هاشم

كان البيت النبوي الكريم ينتظر ساعة الوضع في لهفة وترقب ، فقد
اوشكت فاطمة الزهراء رضى الله عنها ان تضع مولودا جديدا بعد ان رزقت
بالحسن والحسين ، وثالث لم يقدر له ان يعيش هو المحسن بن على .

واذيعت البشري ان الزهراء وضعت انثى سميت زينب تيمنا بخاله
الوليدة الجديدة ، السيدة زينب بنت المصطفى عليه السلام .

وذكر في رواية اخرى : لما ولدت زينب في شعبان من السنة الخامسة
للهجرة جاءت بها امها الزهراء الى ابيها على بن ابي طالب رضى الله عنه ،
وقالت له :

— سم هذه المولودة .

فقال لها :

— ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان في سفر له .
ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم سألته على عن اسمها فقال :

— ما كنت لأسبق ربي تعالى .

فهبط جبريل عليه السلام يقرأ على النبي السلام من الله الجليل ،
وقال له :

— سم هذه المولودة زينب فقد اختار الله لها هذا الاسم .

ورويت روايات حول مولد زينب حفيدة المصطفى . روايات ان لم يكن
لها موضع في كتب التاريخ المحققة تحقيقا علميا ، الا ان لها اثرها في
الوجدان .

فقد تحدثوا انه ذاعت نبوءة عند مولدها ، بما ينتظرها من محن وآلام ،
وبالفجعة التي ستصاب بها في كربلاء ، وروى ان سلمان الفارسي رضى الله
عنه اقبل على بن ابي طالب رضى الله عنه ، يهنئه بالمولودة الجديدة ،
فوجده حزينا واجما ، وحدثه عما ستلقاه يوم كربلاء .

وفي سنن الامام احمد بن حنبل ان جبريل اخبر المصطفى عليه السلام
بمصرع الحسين رضى الله عنه واهل البيت في كربلاء .

وروى أيضا أن زينب بنت الزهراء كانت تتلو يوما بعض آيات القرآن الكريم ، ثم توجهت تسأل أباهما تفسير بعض هذه الآيات ، فأجابها رضى الله عنه . ثم استطرد يللمح لها الى الدور الخطير الذى ستلقاه ، فأجابه رضى الله عنها :

أعرف ذلك يا أبى ، أخبرتنى به أمى كيما تهيننى لغدى !

ودهش الامام على ، اذ كانت ابنته تعلم من أمها فاطمة الزهراء ما ينتظرها من أحداث دامية ، فأطرق وجهه صامتا ، وقلبه يخفق رحمة وحنانا وشفقة على ابنته الحبيبة .

عاشت زينب منذ مولدها فى المهد الحزين ، الذى لفته النبوة المؤلمة . . ولقد لقيت من جدها الأعظم كل عطف وحنان ومحبة ، واسبغ عليها نور النبوة والحكمة ، درجت تلك الدرة البتيمة ، فى بيت الرسالة ، ووضعت لبان الوحي من ثدى الزهراء البتول ، وغديت بغذاء الكرامة من كف ابن عم الرسول ، فنشأت نشأة قدسية ، وربيت تربية روحانية ، متجلية جلابيب الجلال والعظمة ، مرتدية رداء العفاف والحشمة .

وقد فقدت السيدة زينب جدها صلى الله عليه وسلم وهى بنت خمس ، فقدت أمها الزهراء بعد ذلك بشهور قليلة لا تتجاوز السنة ، فحزنت ، لفقدتهما حزنا عميقا جعلها أنضج ادراكا وأرشف حسا ، فنحملت وهى صبية صغيرة ، عبء ادارة بيت أبيها ورعاية شئون اخواتها .

شبت زينب الطاهرة عن الطوق ، ونما عودها افضل نماء ، وزكا نباتها الطيب فى روضة النبوة ، ودوحة الرسالة ، وجملها ربها بدنا وروحا ، وطبعا خلقا ، وعندما بلغت مبلغ الزواج تهافت عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش ، ذوى الرفعة والشرف . لكن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، اختار لفتاته ، عبد الله بن جعفر .

ابوه جعفر بن أبى طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، واخوه على بن أبى طالب لابويه ، وكان أشبه الناس بالمصطفى عليه السلام خلقا وخلقا .

وصفه أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

« ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطئ التراب بعد رسول الله

صلى الله عليه وسلم افضل من جعفر بن ابي طالب .
وكان الرسول يكنيه ابا المساكين .

هاجر بدينه الى الحبشة ابان اضطهاد الارستقراطية القرشية لدعوة الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه جل جلاله ، ثم رجع مع من رجع من المسلمين ، وصادف وصوله الى المدينة المنورة فتح خيبر فالتزمه الرسول ، وجعل يقبله بين عينيه ويقول :
« ما ادرى بأيهما انا اشد فرحا ، بقدم جعفر أم بفتح خيبر ؟ »
وانزله الرسول الأعظم الى جنب المسجد .

سار مع كتيبة الايمان التى توجهت الى بلاد الروم فى السنة الثامنة للهجرة ، وقد جعل الرسول لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، فان أصيب ، فجعفر بن ابي طالب على الناس .

ومضت كتيبة الايمان حتى اذا كانت بتخوم البلقاء ، لقيتم جيوش « هرقل » فانحاز المسلمون الى قرية « مؤتة » ودارت معركة رهيبة ، قاتل فيها « زيد » براية الرسول الكريم حتى شاطئ (١) فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر بن ابي طالب . فقاتل بها حتى اذا ألجمه القتال عن فرس له شقراء فمقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل . فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الاسلام فرسه .

وروى ان الرسول الكريم لما اتاه نعى جعفر ، دخل على امراته اسماء بنت عميس ، فعزاها فيه ، ودخلت فاطمة وهى تبكى وتقول :
— واعماه !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
— على مثل جعفر فلتبك البواكى .

ودخله من ذلك حزن شديد حتى اتاه جبريل ، فأخبره ان الله قد جعل لجعفر جناحين مخرجين بالدم يطير بهما مع الملائكة فى الجنة .
وكان عبد الله بن جعفر أول مولود ولد فى الاسلام فى هجرة الحبشة ، وبإيعاز الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين ، وزاد حبه له وعطفه عليه بعد موت أبيه جعفر ، حتى انه مسح على رأسه وقال :
— « اللهم اخلف جعفرا فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه — قالها ثلاثا — وفيه — وانا وليهم فى الدنيا والآخرة » .

(١) يقال : شاط الرجل ، اذا سال دمه فهلك .

كان عبد الله كريما واذا حليما ، يسمى بحر الجود . وقد وصفه ابن عباس رضى الله عنهما فقال : « كان الله ذكورا ، ولنعمائته شسكورا ، وعن الخناز جورا ، جواد كريم ، وسيد حليم ، ان ابتداء أصاب ، وان سئل اجاب ، غير حصر ولا هيب ، ولا فحاش عياب ، حل من قريش في كريم النصاب كالهزير الضرغام ، الجرىء المقدام ، ليس يدعى لدعى ، ولا يدنو لدنى » .

ولما مات سنة ثمانين هجرية ، شهد جنازته أهل المدينة كلهم ، وراثه الكثيرون ومنهم ابان بن عثمان أمير المدينة الذي وقف على حافة قبره ، ودموعه تسيل على خديه ، وهو يقول :

— كنت والله خيرا لا شريك ، وكنت والله شريفا واصلا برا .
وقال هشام المخزومي : أجمع أهل الحجاز والبصرة والكوفة على أنهم لم يسمعوا بيتين أحسن مما كتب على قبر عبد الله وهما :

مقيم الى أن يبعث الله خلقه
لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بل في كل يوم وليلة
وتنسى كما تبلى وأنت حبيب

هذا هو الذى اختاره الامام على بن أبى طالب زوجا لابنته الطاهرة زينب ، التى بلغت من تعلق أبيها بها ، ان لقائها معه ، حتى اذا ولى أمر المسلمين وانتقل الى الكوفة ، انتقلت وزوجها فعاشا في مقر الخلافة في رعاية أمير المؤمنين .

خرجت السيدة زينب مع الحسين وبقية أهل البيت الى كربلاء ، حيث استشهد الحسين رضى الله عنه ..

تحرك موكب الأسرى والسبایا من أهل البيت النبوى الكريم . وما كاد الركب يمر على ميدان المعركة ، حتى صاحت النساء . ولطعن خدودهن ، وصاحت زينب :

— يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعرء مرمل بالدماء مقطوع الأعضاء ، يا محمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا .

فابتكت كل عدو وصديق .
ودخل الموكب الحزين الكوفة .

وتجتمع أهل الكوفة ليكون ، فقالت لهم زينب ، مبكته مؤدبة . مقومة
مهذبة :

— ي أهل الكوفة ؟

أتبكون ؟! فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة !

انما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم
دخلا بينكم ، الا ساء ما تزرعون !

أى والله ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها ونسارها ،
فلن نرحضوها — لن تغسلوها — أبدا .

وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة . ومدار
حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة !

لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء !

أتعجبون لو أمطرت دما ؟

الا ساء ما سولت لكم انفسكم ، ان سخط الله عليكم وفى العذاب انتم
خالدون

أندرون أى كيد فريتم ، وأى دم سفكتكم ، وأى كريمة أبرزتم : لقد
جئتم شيئا اذا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال
هدا «

ضج الناس بالبكاء والعيول وفزعوا من هول ما سمعوا : وسقط فى
أيديهم ، وبلغ بهم الأسف مبلغه ، ووجفت القلوب ، واقشعرت الأجساد
من هول تلك المحنة الدهماء .

وعندما ادخل أهل البيت النبوى الكريم الى حيث عبيد الله بن زياد
والى الكوفة ، تذكرت السيدة زينب رضى الله عنها تلك القاعة التى كان
يجلس فيها — من قبل — أبوها الامام على بن أبى طالب ، دخلتها هذه
المرّة وقلبها متصدع مما مر بها من احداث جسام ، ولكنها لاذت بكل
كبرياتها وعزة نفسها وكرامة محتدها ، معتزة بعلو حسيها ونسبها الشريف ،
ملتفة بجلال النبوة ، وجلست منتحية ناحية من القاعة تحف بها اماؤها .

فتساءل ابن زياد عن هذه المنحازة وحدها ومعها نساؤها .

فقال بعض امائها :

— هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت
الامام على كرم الله وجهه .

فقال متشفيا فيها :

— الحمد لله الذى فضحككم وقتلكم واكذب اُحدوثكم .

فردت عليه السيدة زينب بكل اِباء وشمم :

— الحمد لله الذى اكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس
تطهيرا : انما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا .

فلم يصبر ابن زياد على قولها ، بل رد عليها قائلا :

— كيف رايت صنع الله فى اهل بيتك واُخيك ؟

هنا تتجلى اُسمى معانى الايمان العميق والصبر الجميل والشجاعة
النادرة فى قولها له :

— ما رايت الا خيرا . هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتال فبرزوا الى
مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصمهم ، فانظر لمن الفلح
يومئذ . تكلتك امك يابن مرجانة !

فأثار هذا الرد الحازم حفيظة ابن زياد ، فقال لها وهو فى اشد
حالات الغيظ :

— لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من اهل
بيتك .

فقالت له :

— لعمري لقد قتلت كهلى وقطعت فرعى واجتثت اُصلى فان كان فى
هذا شفاؤك فلقد اشتفيت .

انار هذا النقاش بينها وبين ابن زياد حماسا وغيرة على بن الحسين
رضى الله عنهما على عمته ، فانبرى صائحا يا بن زياد اُ

— الى كم تهتك عمى بين من يعرفها ومن لا يعرفها ؟

فالتفت اليه وقال : من انت ؟

فرد عليه فى ثبات :

— انا على بن الحسين .

فقال ابن زياد :

— اليس الله قتل على بن الحسين ؟

قال على :

— كان لى اخ يسمى عليا قتله الناس بأسبابهم .

فقال ابن زيادة :

— بل قتله الله .

قال على فى ايمان عميق :

— « الله يتوفى الأنفس حين موتها وانى لم تمت فى منامها » .

فيسأله ابن زياد فى دهشة وعجب :

— أو بك جراحة على جوابى وفيك بقية للرد ؟ ثم صاح بغلmane ان مدهبوا به فيضربوا عنقه .

فتعلقت به عمتة السيدة زينب وقالت :

يا بن زيادة حسبك من دماننا ما ارتويت وسفكت . وهل أبقت احدا غير هذا ؟ والله لا أفارقه فان قتلته فاقتلنى معه .

وقال على ا

— أسكتى يا عمة حتى اكلمه ، والتفت اليه قائلا :

— أبالقتل تهددنى ، أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة ؟

فنظر ابن زياد اليها فترة ثم قال :

— عجبا للرحم ، والله انى لأظنها ودت لو انى قتلتها معه ، دعوة فانى أراه لما به مشغولا .

ولما أصبح ابن زياد أمر برأس الحسين رضى الله عنه فطيف به على رمح فى الكوفة ، ثم انقلوه مع رعوس اصحابه الى يزيد بن معاوية ، وأمر بنسائه وصبيائه ، فجهزوا وحملوا على الأقتاب وسرح بهم الى دمشق ، وعلى بن الحسين مقيد مغلول اليدين .

فلما مثلوا بين يدى يزيد وإماه الرأس الشريف ، تطاولت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضى الله عنهم ينظران الى الرأس والدموع هائلة . والأفئدة

واجمة ، والقلوب مضطربة ، واحسن يزيد بذلك ، فاضطرب وجعل يتناول بدوره ليستر الرأس الشريف عنهما .

وكان في مجلس يزيد رجل شامي ضخم الجثة احمر الوجه ، ظل يحدق في فاطمة بنت علي - وكانت شابة وضيئة - ويلتهمها بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مسمتزة ، وقام الرجل الى يزيد فقال :

- هب لي هذه .

خافت فاطمة : واخذت بشياخ اختها زينب ، فقالت السيدة زينب ا

- كذبت والله واؤمت ! ما ذلك لك وله .

فعضب يزيد ، وقال :

- كذبت والله ، ان ذلك لي ، ولو شئت ان افعله لفعلت .

قالت زينب :

- كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك الا ان تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .

فاستطار يزيد غضبا وقال :

- ابني تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك .

فقالت زينب :

- بدين الله ودين أبي ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك .

قال يزيد :

- كذبت يا عدوة الله !!؟

قالت زينب ا

- أنت امر مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك .

فاستحى يزيد وسكت عنها .

وعاد الشامي يقول :

- يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه الجارية .

فقال يزيد ا

- أغرب ، وهب الله لب حتفا قاضيا !

كشف يزيد عن رعوس الشهداء وانثنى يعبث بقضيب في يده ، بثنايا الحسين رضو الله عنه ، ويقول شامتا متشفيا .

يا غراب البين أسمعت ، فقل
انما تذكر شيئاً قد فعل
ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع «الخزرج» من وقع الأسل
لا هلوا واستهلوا فرحاً
ثم قالوا يا «يزيد» لا تسل

فأنبرت له السيدة زينب في نقّة وإيمان ، وثبات جنان ، وجعلت تردعه
وترجّره ، وتطلم غروره بهذه اللطامات ، قالت :

(الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين - صدق
الله سبحانه حيث يقول : ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ان كذبوا
بآيات الله وكانوا بها يستهزئون (١) » •

ظننت يا يزيد حين اخذت علينا اقطار الأرض وآفاق السماء ، فأصبحنا
نساق كما تساق الأسارى ، ان بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة ، وان ذلك
لعظيم خطرك عنده ، فشمتك بأنفك ونظرت في عطفك تضرب اصديرك (٢)
فرحاً ، وتنفض مذورك (٣) مرحاً جذلان مسروراً ، حين رايت الدنيا لك
مستوسقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلاً مهلاً
انسيت قول الله تعالى :

« ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خيراً لأنفسهم انما نملى لهم
ليزدادوا اثمًا ولهم عذاب مهين (٤) » •

امن العدل بابن الطلقاء (٥) تخديرك حرائرك واماءك وسوقك بنات
رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحسّدو بهن
الأعداء من بلد الى بلد ، يستشرفهن أهل المناهل والمنافل ، ويتصفح
وجوههن القريب والبعيد ، الدنى والشريف ، ليس معهن من رجالهن ولى ،
ولا من حماتهن حمى ، وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه اكباد الأذكىاء
ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطن في بفضنا أهل البيت من نظر

(١) سورة الروم : ١٠

(٢) متكبيك •

(٣) اللوران : جانباً اليتين ولا واحد لها ، أى ماغيا يتهدد •

(٤) سورة آل عمران : ١٧٨ •

(٥) الطلقاء : هم آباء يزيد الذين اطلقهم الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة •

فقال ، اذهبوا فانتم الطلقاء •

الينا بالشئف والشنآن ، والاحن والأضغان ، ثم نقول غير منائم ولا مستعظم أ

لا هلوا واستهلوا فرحا نم قالوا يا يزيد لا تشل منحنيا على ثنایا أبی عبد الله سيد شباب اهل الجنة تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأب القرحة ، واستأصلت الشاقة ، باراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وتهتف بأشياخك زعمت انك تناديهم ، فلتردن وشيكا مورد هم ولتودن انك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت ، اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا ، فوالله يا يزيد ما فريت الا جلدك ولا حززت الا لحمك ، ولتردن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تحملت من دماء ذريته وانتهكت من حرمة في عترته واحمنه ، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم .

((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم

يرزقون)) .

وحسبك بالله حاكما وبمحمد صلى الله عليه وسلم خصيما وبجبريل ظهيرا ، وسيعلم من سول لك وامكنك من رقاب المسلمين - بشس للظالمين بدلا - أيكم شر مكانا واضعف جندا ، ولئن جرت على الدواهي مخاطبتك ، انى لأستصغر قدرك ، واستعظم تقريعك واستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى ، الا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الايدى تنطف من دماءنا ، والأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكى تنتابها العواسل (الذئاب) ، وتعقرها امهات الفراعل (الضباع) ، ولئن اتخذتنا مفنما لتجدنا وشيكا مفرما ، حين لا تجد الا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد ، والى الله المشتكى وعليل المعول ، فكذلك ، واسع سعيك ، وناصب جهنك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحيانا ، ولا تدرك امدنا ، ولا تدحض عنك عارها ، وهل رايت لها فند (كذب) ، وأيامك الا عدد ، وجمعك الا بدد ، يوم ينادى المنادى الا لعنة الله على الظالمين ، فالحمد لله رب العالمين الذى ختم لأولنا بالنسعادة والمغفرة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، نسال الله ان يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخسلافة انه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل .

لم يستطع يزيد مع ما هو عليه من سلطان وملك وهيبة بخشاها اكثر الناس ، أن يقاطع كلام السيدة زينب ، او ان يمنعها من الاستمرار فيه .

مع انه من لاذع الفول ، رغم وجودها في ذلة الأسر دامية القلب دامعه العين
مما مر بها من احداث جسام .

واراد يزيد بن معاوية ان يخرج من هذا المأزق الذى وقع فيه والحرع
الشديد الذى اصابه من افتضاح حقيقة امره ، فلم يستطع ان ينطق بغير
هذه الكلمة :

يا صبيحة تحمد من ضوائح ما اهون النوح على النوانح
واراد يزيد ان يكفر ولو بعض الشيء عن سوء صنيعه وشنيع فعلته ،
فعرض على السيدة زينب الأموال الكثيرة التى نهبت منها وكذلك غيرها
لتأخذها عوضا عن الحسين رضى الله عنه وانصاره . فقالت :
— يا يزيد ما أقسى قلبك ، تقتل أخى وتعطينى المال ، والله لا كان
ذلك أبدا .

وامر يزيد ، النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم في رحلتهم الى
المدينة المنورة وان يصحبهم في ركبهم اليها ، فخرج معه بعض رجائه ومنهم
بشر بن حذلم ، فاحسنوا الصحبة طول الطريق الى المدينة ، وكان بشر محبا
الله ولرسوله ولآل البيت النبوى الكريم ، على خوف من بنى أمية وكان
لسان حاله يقول :

احب الحسين ولكنما
لسانى عليه وقلبي معه
حبست لسانى عن مدحه
ضرار أمية ان تقطعه
اذا الفتنة اضطربت في البلاد
ورمت النجاة فكن امعه

ولما بلغوا مشارف المدينة المنورة قالت فاطمة بنت علي لاختها زينب :
— يا اخية ، لقد احسن هذا الرجل إلينا في صحبتنا فهل لك في ان
نصله ؟

— والله ما معنا شيء نصله الا حلينا .

واخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به الى الرجل ، معتدتين
اليه عن ضالة الهدية . ولكن الرجل رد اليهما الحلى قائلا :

— لو كان الذى صنعت انما هو للدنيا كان في حليكن ما يرضينى ودونه،
ولكن والله ما فعلته الا الله ، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تولى على المدينة ذهول عميق ، وروعة عظيمة ، عندما سمعت بشر بن
حذلم يرفع صوته بالبكاء وينشد قائلا :

ياهل يشرب لا مقام لكم بها
قتل الحسين فادمعى ممدارا
الحسم منه بكرلاء مضرج
والرأس منه على القناة يدار

ثم نادى : هذا على بن الحسين مع عماته واخواته قد حلوا بساحتكم
ونزلوا بفنائكم ، وانا رسوله اليكم اعرفكم مكانه ،

فخرج الجميع رجالا ونساء ولم ير اكثر من ذلك اليوم باكيا او باكية
وهم يستقبلون ذلك الركب الكريم وينادى قائلا :

اترجو امة قتلت حسيننا

شفاعة جده يوم الحساب
واندفعت زينب بنت عقيل بن ابي طالب . ومعها نساؤها وهى حاسرة
تلوى بثوبها وتصرخ :

ماذا تقولون ان قال النبی لكم
ماذا فعلتم ، وانتم آخر الامم

بعترتي وبأهلى بعد مفتقدى
منهم اسارى ، ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم

ان تغلفونى بسوء فى ذوى رحمى
ولما سمع والى المدينة عمرو بن سعد (١) اصواتهن وصعد المنبر فأعلم
الناس بمقتل الحسين رضى الله عنه .

ولما بلغ عبد الله بن جعفر قتل ابنيه ، استرجع ، فدخل عليه بعض
مواليه والناس يعزونه فقال :

— هذا ما لقينا من الحسين .

فحذفه ابن جعفر بنعله وقال :

— يا بن اللخناء ، للحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت ان
لا افارقه حتى اقتل معه . والله انه لما يهون على المصاب بهما انهما اصيبا

(١) قتل الملك بن مروان عمرو بن سعد بعد ذلك قتلة فظيمة .

مع اخي وابن عمي ، مواسيين له ، صابرين معه . وان لم تكن آست الحسين
يدى ، فقد آسأه ولداى .

كان وجود السيدة زينب فى المدينة المنورة كافيا ، لأن تلهب المشاعر
وتؤلب الناس على الطفافة ، فقد راحت تخطب الجماعات مظهرة عـددوان
يزيد بن معاوية وبغى عبد الله بن زياد وطغيان اعوانهما على اهل البيت
النبوى الكريم ، فاثارت الشائرة وهيجت الالباب ، ولفتت انظار الاحرار الى
الدم المسفوك ، والثار المضيع ، حتى كاد الأمر يفسد على بنى أمية . فكتب
عمرو بن سعد والى المدينة ليستنجد بيزيد ويقول له :

« ان وجودها بين اهل المدينة مهيج للخواطر ، وانها فصيحة عاقلة
لبيبة ، وقد عزمت هى دمن معها على القيام للاخذ بثأر الحسين » .

فأمره يزيد أن يفرق البقية الباقية من اهل البيت النبوى الكريم فى
الاقطار والامصار ، وطلب والى الى السيدة زينب ان تخرج من المدينة
فتقيم حيث تشاء . وقد عز ذلك وعظم عليها ان ترحل من ارض الآباء
والأجداد ، مهبط الوحي ، وحيث توجد الأعظم العطرات لآلها ، وقالت :

— قد علم الله ما صار اليه أمرنا ، قتل خيرنا ، وسبق الباقون كما
تساق الانعام ، وحملنا على الاقتاب . فوالله لاخرجنا وان اريقتم دماؤنا .
واجتمع عليها نساء بنى هاشم وتلطفن معها فى الكلام . وواسيتها وحبدن
لها الخروج .

وقالت لها زينب بنت عقيل بن أبى طالب :

— يا بنت عماء ، قد صدقنا الله وعده وارثنا الأرض ننبا منها حيث
نشاء فطيمى نفسا وقرى عينا ، وسيجزى الله الظالمين ، ارحلى الى اى بلد
آمن .

وقد اختارت السيدة زينب رضى الله عنها ، مصر دارا لاقامتها لما
سمعتة عن اهلها وحبهم لاهل البيت النبوى الكريم .

وما كاد خبر رحيل السيدة زينب يبلغ والى مصر اذ ذاك مسلمة بن
مخلد الانصارى ، حتى توجه ومعه جماعة من اصحابه ورهط كبير من اعيان
مصر وعلمائها ووجهائها وتجارها ليكونوا فى شرف استقبالها . فاستقبلوها
عند قرية على طريق مصر والشام شرقى بلبيس عرفت فيما بعد بقصرية
العباسة نسبة للعباسة ابنة احمد بن طولون .

وقد تقدم مسلمة من السيدة زينب وعزاها في خشوع وخضوع ، وبكى فبكت وبكى الحاضرون ، ثم قالت :

.. « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

وقد وافق دخول السيدة زينب مصر ، بزوغ هلال شعبان سنة احدى وستين هجرية الموافق ٢٦ ابريل سنة ٦٨١ ميلادية ، وكان قد مضى على استشهاد الحسين رضى الله عنه ستة اشهر وايام .

وقد انزلها الوالى هى ومن معها فى داره بالحمراء القصوى ترويحاً لها ، اذ كانت تشكو ضعفاً من اثر ما مر بها . فنزلت بتلك الدار معززةً مكرمة ، وبقيت فيها موضع اجلال المصريين وتقديرهم ، حيث كانوا يفتدون الى منزلها الكريم ملتجئين بركتها ودعواتها ، مستمعين الى ما ترويه من الاحاديث النبوية الشريفة والادب الدينى الرفيع .

وبقيت السيدة زينب بتلك الدار اقل من عام بقليل ، فلم تر خلال مدة اقامتها الا عابدة متبتلة متهجدة صوامة قوامة تالية لآى القرآن المجيد وانتقلت رضوان الله عليها الى الرفيق الاعلى عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضي من رجب عام ٦٢ هـ ، فمهدت لها الأرض الطاهرة مرقداً لنا فى مخذعها فى دار مسلمة حيث اقامت وحيث اختارت ان تكون ضجعتها الاخرة

أم كلثوم

كانت السيدة فاطمة الزهراء تعتز اعتزازا كبيرا باسم زينب ، فقد شاء الله أن تلد رضى الله عنها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم انثى اخرى سميتها زينب ، وكنّاها جدها عليه السلام أم كلثوم .

ولما شبت أم كلثوم عن الطوق ، ونما عودها ، سارع امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى خطبتها ، فلما طلبها رضى الله عنه من ابيها على بن ابي طالب كرم الله وجهه ، قال له :

— انها صغيرة .

فقال لها عمر :

— انكحنيها يا على فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما ارصد .

فقال له عمر :

— انا ابعثها اليك فان رضيت فقد زوجتكها .

فبعثها اليه ببرد ، وقال لها :

— انطلقى بهذا الى امير المؤمنين ، فقولى ارسلنى ابى بقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه وان سخطته فرده .
فلما اتت عمر قال :

— بارك الله فيك وفى ابيك قد رضينا .

ورجعت أم كلثوم الى ابيها وقالت :

— ما نشر البرد ولا نظر الا الى .

فقال على :

— يا بنيتى انه زوجك .

وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مجلس المهاجرين بالروضة ، وكان يجلس فيه المهاجرون الاوون ، فجلس اليهم ، وقال لهم ا
— رفقسونى !

فقالوا :

— بماذا يا امير المؤمنين ؟

قال :

— تزوجت ام كلثوم بنت على بن ابي طالب . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري » .
وكنت فد صحبته فأحببت ان يكون هذا ايضا .

سمع المهاجرون هذا من عمر ، فرفثوه . واصدق امير المؤمنين ام كلثوم اربعين الف درهم وفوض على العباس في تزويج ام كلثوم من عمر رضى الله عنه .

ورزقت ام كلثوم بولد وبنت من عمر بن الخطاب . اما الولد فسمى « زيدا » واما البنت فسميت « رقية » .

اما زيد وكان يسمى « ذو الهالين » فقتل في حرب كانت في بنى عدى ليلا ، وكان قد خرج لاصلاح ذات البين بينهم . فضربه خالد بن اسلم مولى عمر بن الخطاب في الظلام ولم يعرفه ، فصرع وعاش اياما ومات هو وامه في وقت واحد . ولم يعقب ، فلم يدر ايهما مات قبل الآخر ، فلما وضع للصلاة ، قدم زيدا قبل امه مما يلي الامام ، وصلى عليهما عبد الله بن عمر ابن الخطاب وسعيد بن العاص امير الناس .

اما رقية بنت عمر ، فقد تزوجت ابراهيم بن نعيم النحام ، فولدت له جارية . وماتت الجارية وماتت امها ايضا ، فأنقرض ولد ام كلثوم من عمر .

وتوفيت ام كلثوم رضى الله عنها بغوطة دمشق ، عقب محنة أخيها الحسين رضى الله عنه ، ودفنت في هذه القرية ، ثم تسمت القرية المذكورة باسمها ، وهى الآن المعروفة بقرية الست .

صورة وصفية

وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها الزهراء البتول فقالت : « ما رايت احدا من خلق الله اشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة . وكانت اذا دخلت عليه اخذ بيدها فقبلها ورحب بها واجلسها في مجلسه ، وكان اذا دخل عليها ، قامت اليه ورحبت به . واخذت بيده فقبلتها » .

وقد تشبعت بالأدب النبوى الكريم ، فكانت تتحرى تقوى الله ، وتتخرج فيما اعتقدته من اوامر الدين ، حتى ظنت ان اكل الطعام المطبوخ بوجوب الوضوء . فقد دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا ، فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقالت :

— يا ابة ! الا تتوضأ ؟

فقال :

— مم أتوضأ يا بنية ؟

قالت :

— مما مست النار .

قال النبى :

— او ليس اطيب طعامكم ما مست النار ؟

فهى فيما تجهله تتخرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على الهواة معها .

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت لشبه برسول الله في مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة رضى الله عنها فقالت :

— ما رايت افضل من فاطمة غير ابيها .

كانت الزهراء شديدة الاعتزاز بانتسابها الى ابيها ، وكانت مفضولة على يقين التدين . كان من اعتزازها بالانتساب الى ابيها انها كانت تسر بمشابهة ابنائها لابيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم . فلم يكن احب اليها من ان يقال لها ان اسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من ابوين ، كان حسبها ما ورثته من الرسول الأعظم وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها اضافت اليه ما ورثته من أمها السيدة خديجة بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته

نشأت في بيت رسول كريم ، ورباها نبي عظيم ، بل ولم يزل يتعهدا بتذكيرها بحق الله ، حتى بعد زواجها ، فقد روى انه صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى صلاة الفجر ، يمر ببית فاطمة الزهراء وينادى :

- السلام عليكم اهل البيت ورحمة الله وبركاته . الصلاة يرحمكم الله .
« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وقد خصت الزهراء البتول من ابها صلى الله عليه وسلم بأحاديث تدل على ان الرسول الأعظم كان يختصها بمحبته ويؤثرها بمودته ، وان لها موقعا في نفسه ، ومكانا من قلبه .

عن مجاهد رضى الله عنه ، قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بيد فاطمة ، فقال : « من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها ، فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة منى ، وهى قلبى ، وروحى التى بين جنبي فمن آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى » .

وعن ابى ايوب الانصارى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا كان يوم القيامة جمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادى مناد من بطنان العرش ان الجليل جل جلاله يقول : نكسوا رءوسكم وغضوا أبصاركم . فان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد ان تمر على الصراط » .

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال :

-- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ملكا من السماء لم يكن زارنى ، فاستأذن ربي في زيارتى فبشرنى واخبرنى ان فاطمة سسيمة نساء امتى .

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة ، وأخذ بعضادنى الباب ، وقال : « السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة وموضع الرسالة ومنزل الملائكة ، يا بنينة ان الله سبحانه وتعالى اطلع على أهل الارض اطلاعه فاختر اباك فجعله نبيا ، ثم

اطلع الثانية فاختار منهم زوجها عليا فجعله لى اخا ووصيا . ثم اطلع الثالثة فاختار له راماك فجعلهما سيدتى النساء ، ثم اطلع الرابعة فاختار ابيسك فجعلهما سيدى شباب اهل الجنة . فقال العرش . اى ربى . ابنى نبيك . وابنى وصى نبيك زينى بهما فهما يوم القيامة فى ضفتى العرش بمنزله الشفيعين من الوجه .

السيدة فاطمة الزهراء قوية الشخصية ، ثابتة القواد ، عاقلة لبيبة جيزة ، ورنيت عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الفصاحة فى القول والقدرة على التعبير والبيان . وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسر دكم هدا ، ولكن كان ينكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس اليه » . وهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام .

قال الامام ابو الفضل احمد بن طاهر فى كتاب « بلاغات النساء » : « لما اجمع ابو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على راسها واقبات فى لمة من حفدتها تطأ ذبولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على ابي بكر وهو فى حشد من المهاجرين والانصار فنيطت دونها ملاءة ثم انت انة اجهت القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهذات فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادته فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، فان تعزوه تجدوه ابنى دون نساكم ، واخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ الندارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مדרجة المشركين ، ضاربا لشجنهم (١) آخذنا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرى الليل عن صبحه واسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شناسق الشياطين ، وكنتم على شفا حرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الاقدام تشربون الطرق (٢) . وتقتاتون القد اذلة خاشعين تخافون ان يتخطفكم الناس من

(١) الشجن يسكون الجيم وتحريكها الطريق الومر .

(٢) الطرق : الماء الذى بالى الابل فيه .

حولكم فانتذركم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي وبعد ما
منى بيهن الرجال وذؤبان العرب ومردة اهل الكتاب . (كلما اوقدوا نارا
للحرب اطفأها الله) . . ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف
بأخيه في مهواته؛ فلا ينكفى حتى يطا صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بسيفه
مكدودا في ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا في اولياء الله ، وانتم في
بلهنية وادعون آمنون . حتى اذا اختار الله لنبيه في دار انبيائه طهرت خلّة
النفاس وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الافاكين وهدر
فنيق (١) . المبطلين فخطر في عرصانكم واطلع الشيطان راسه من مغرزه ،
صارحا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم
فوجدكم خفافا واحمشكم فالقاكم غضابا ، فوسمتم غير ابلكم ، وأوردتمودا
غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل .

ومضت تقول : « وانتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا ، (افحكم الجاهلية
يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) . ايها المسلمة المهاجرة
البتز ارث ابي ؟ افي الكتاب ان ترث اباك ولا ارث ابي ؟ لقد جئت شيئا
فريا ، فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم
محمد والموعود القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر
وسوف تعلمون .

ثم انحرفت الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهي تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبئة

لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

اذا فقدناك فقد الارض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

هذه رواية لخطاب فاطمة الزهراء ، وفي الكتاب نفسه رواية اخري
مخالفة في لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال
ابو الفضل ١

« ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب
صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء - يشير الى
قوم في زمانه يفضون من قدر اهل البيت - يزعمون انه مصنوع وانه من
كلام ابي العيناء .

(١) الجمل القوي .

فقال لي : رايت مُشايع آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه إبنائهم وقد حدثني أبي عن جدي يبلغ به فاطمة عليها السلام على عهد الحُدَّاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبي العبيد . وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ . .

لقد نشأت رضى الله عنها وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء . وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من أمام متفق على بلاغته بين محبيه وشائئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الاوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحايتها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى .

كانت الزهراء قانعة زاهدة ، فقد التزمت بالحكمة القائلة ان الزاهد من يجب ما يجب خالقه . ويبغض ما يبغض خالقه ، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت الى حرامها .

أسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبی صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر اتى فاطمة فدخل عليها واطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف اصحابه على الباب لا يدرون ايتيهم ام ينصرفون اطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيهها وقلادتها ومسكتيهما ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت للرسول اقل له تقرا عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله . فلما آتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها - ثلاث مرات - ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » .

كانت فاطمة البتول ذات ارادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وقد بدا ذلك فى حاجتها لزوجها ، وم حاجتها لأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها . وقد يكون من

ولائل الإرادة في المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وأنها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلاً عما تعلم . ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه .

قد ماتت الزهراء في ربيع العمر . في الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فإذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة وهي في تلك السن الباكرة فذاك ولا ريب دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيتها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين (١) .

(١) مباس محمود العقاد: فاطمة الزهراء ، ص ٧٣ .

في الحياة العامة

عاشت الزهراء تنعم بحب الرسول الأعظم ، وكانت دارها بجوار دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال السهمودي في « أخبار دار المصطفى » . . « أن بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر ، بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خوخة ، وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضي الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطالع من الكوة الى فاطمة ، فعلم ببرهم ، وان فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي : ان ابني امسيا عليين . فار نظرت لنا ادما نستصبح به . فخرج على الى السوق فاشتري لهم ادما وجاء به الى فاطمة . فاستصيحبت فأبصرت عائشة المصباح عندهم في جوف الليل - وذكر كلاما وقع بينهما - فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي صلى الله عليه وسلم ان يسد الكوة فسدها » .

كانت دار الزهراء بجوار دار الرسول ، حتى يستمتع برؤية أحفاده بعد ان حرم من الأبناء الذكور . . وفجأة .

شكا ابو الزهراء ، صلى الله عليه وسلم من مرض ألم به في ليل بقين من صفر في السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب أهل البيت والمسلمون انها وعكة طارئة لا تليث أن تزول ، دون أن يجروا أحد على الظن بأنه مريض الموت !

غير أن الزهراء لم تكذب تسمع بشكوى أبيها ، حتى خافت ، واجفات وكأنها لسهتها نار ! ذلك انها ذكرت حديثا أسر به صلى الله عليه وسلم إليها منذ ايام . وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند السيدة عائشة رضي الله عنها .

جاءت الزهراء تمشي لا تخطيء مشيتها مشية أبيها رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ، وما ان رأت اباها عليه السلام حتى سألته متلهفة عليه :

— ما بك يا رسول الله ؟

— مرحباً بابنتي .

— أبت مالك ؟!

فقبلها نبي الرحمة ، ثم اجلسها الى يمينه ، وأسر لها حديثا فبكت ، ثم أسر لها حديثا آخر فضحكت ، وتمجبت عائشة من البكاء فالضحك ،

فقلت :

— ما رايت كالיום فرحا اقرب الى حزن .

وقامت الزهراء ، فهرعت اليها السيدة عائشة تسألها :

— اخبريني ما سارك ؟ .

ولكن فاطمة أبت أن تكشف وقتئذ عما أسره لها رسول الله فقالت لعائشة :

— ما كنت لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره .

ولكن بعد وفاة الرسول ، ذكرت يوما ما أسره اليها رسول الله ، فقالت انه قال لها :

— ان جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة ، وانه عارضني العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى .

فبكت الزهراء . فأسر اليها .

— وانك أول أهل بيتي لحوقا بي ، ونعم السلف انالك .

وضحكت الزهراء ، فرحا بأنها ستكون أول أهل بيت رسول الله لحوقا به ، ثم عادت فبكت على أبيها .

واحضرت الزهراء ابنيها الحسن والحسين الى الرسول عليه السلام فقالت له :

— يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا .

فقال الرسول :

أما الحسن فان له هيبتي وسوددى ، وأما الحسين فان به جراتي وجسودي .

واشتدت وطأة المرض على الرسول ، وأقامت الزهراء الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء .

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على راسه وهو يقول :

— واكرباه !

فتبكي الزهراء وتقول بصوت يفيض حزنا ولوعة :

— واكربى لكربك يا أبتاه !
فرد عليها وهو يرنو اليها فى عطف .
— لا كرب على أبىك بعد اليوم !
وحم القضاء ، ولحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وبك الزهراء بن محمد
يتيمة حزينة .

وبكت ورثته قائلة :

أبتاه ، يا أبتاه .. أبتاه
أجاب ، ربا دعاه .. يا أبتاه
الى جبريل ننعاد .. يا أبتاه
جنة الفردوس .. مأواه .. يا أبتاه
من ربه ما أدناه .. يا أبتاه

وتجهز نعش رسول الله ، ونقل الى قبره الشريف ، وجاء أنس بن
مالك يسألها الصبر الجميل ، فقالت له :

— يا أنس ! كيف طبأت أنفسكم ان تحثوا على رسول الله التراب .
واسرعت الى قبر الرسول ، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها
على عينيها ، وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على شمم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا

وبكت ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب
من بين أناملها فى حركة يائسة ، ثم تحديق فى يديها الفارغتين ، وتمضى ،
كمن فرغت من الدنيا .

وظلت الزهراء حزينة على أبيها ، ما ضحكت بعد وفاته مرة واحدة
حتى لحقت به .

كان أول ما شغل الناس بعد وفاة الرسول ، من الذى يخلف الرسول
عليه السلام ؟

اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون .. وكادت -
الفتنة ان تنشب اظافرها في المسلمين .. فالخزرج بزعامة شيخها سعد بن
عبادة تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار ابي بكر للخلافة
فاعرضوا عنه ونبذوه . ثم خطر لدى راي منهم ان يقسمها شطرين : امير
من الانصار وامير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه
في قومه نافرا من البيعة لابي بكر بعد انعقادها وهو يأبى الا ان يستبد
الانصار بهذا الرأى دون الناس فانه لهم دون الناس » . ثم اصر على ابائه
حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب
وقال لهم : « اما والله حتى ارميكم بما في كنانتي من نبل واخضب سنان
رمحي » وناشدوه الا يشق عصا الجماعة فعاد يقول : « انى ضاربكم
بسيفى ما ملكته يدي ، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن اطاعنى من قومى ..
وايم الله لو ان الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى اعرض على
ربى » .

وكان هناك خطر آخر ، هو خطر الفتنة التى راح ابو سفيان يوقد
نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعدد قوما
بنصرة بنى امية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل
هذا الوعد ، وما كان يستهدف انصاف بنى هاشم ولا ان يؤيد الانصار ،
وانما اراد الوقعة التى يخلد لهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الاولى
التي كانت له على قريش في الجاهلية .

كان على بن ابي طالب في تلك الساعة العصبية الى جوار الجثمان الطاهر
المسجى في حجرته ، فدخل عليه ابو سفيان وقال :

- يا ابا الحسن ، هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج
عنكم ، فابسط يدك ابايعك !

وقال عمه العباس :

- يا بن اخي ، هذا شيخ قريش قد اقبل ، فامدد يدك ابايعك ويبايعك
معى . فاننا ان بايعناك لم يختلف عليك احد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك
عبد مناف لم يختلف عليك قرشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك
بعدها احد من العرب .

اجاب على :

- لا والله يا عم ، انى لاكره ان ابايع من وراء رتاج .

وما لست أن دخل أبو ذر الفقاري وبعض أنصار علي ، ونقلوا اليه ما كان من أمر بيعة السقيفة . وقالوا له انه أولى بأمر الخلافة من أبي بكر واخذوا يعجمون عيدان الرأي ، فانتهوا الى ان يعيدوا النظر في أمر بيعة السقيفة .

وقال أبو سفيان :

— أما والله اني لأرى عجاجة لا يطفئها الدم . يا لعبد مناف فيم أبو بكر من أمركم ؟ ابن المستضعفان (علي والعباس) ؟

واتجه أبو سفيان الى علي قائلا :

— أبسط يدك أبايعك . فوالله لو شئت لاملانها علي أبي فضيل (أبي بكر) خيلا ورجلا . ولكن عليا رأى ان في مقال أبي سفيان نذير تأليب وفتنة ، فقال له :

— طالما غنشت الاسلام واهله ، فما ضررتهم شيئا ، لا حاجة لنا الى خيلك ورجلك . انك تريد امرا لسنا من اصحابه .

وانجه أبو سفيان الى العباس ، وقال له :

— انك والله لاحق بميراث ابن أخيك .

فرده العباس كما رده علي .

واخذ عمر بن الخطاب الزبير بن العوام علي بن أبي طالب الى أبي بكر الصديق ، وهناك ثار الحديث من جديد حول بيعة السقيفة . فأبو بكر لم يختره الأنصار الا لانه من المهاجرين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا وكان اكبر المهاجرين سنا . وهو الذي اختاره الرسول ليؤم الناس في الصلاة ، ولكن عليا اصر على انه أحق بالأمر ، واحتج بنفس المنطق وقال :

— أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وانتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليه بالقرابة من رسول الله ، فاعطوكم القادة وسلموا اليكم الامارة ، وأنا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به علي الأنصار .

وعاد علي . . ونحدث الى بعض الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم رفضوا ان ينقضوا بيعة تمت ، ولم يتبعه الا القليل .

وعاد على الى داره ، وهو يسبح في بحار من الفكر .. وبينما هو كذلك
انطلق صوت المؤذن :

الله اكبر الله اكبر .. الله اكبر .. أشهد أن لا اله الا الله .. أشهد
أن لا اله الا الله .. أشهد أن محمدا رسول الله .. أشهد أن محمدا رسول
الله .

واتجه على رضى الله عنه الى الزهراء وقال لها :

— اتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟

— لا .

— اذن سأبايع أبا بكر ..

وتمت البيعة لأبي بكر ، والتاريخ يسجل أروع صفحات الإيمان العميق
والاخلاص المجرد .

بايع على بن أبى طالب رضى الله عنه أبا بكر الصديق ، وكاد الخلاف
ينتهى بنظواء الحديث عن الخلافة ، لولا خلاف آخر كان بين السيدة فاطمة
الزهراء من ناحية ، وبين أبى بكر من ناحية أخرى حول فذلك .

وفذلك قرية بينها وبين المدينة يومان أو ثلاث ، كان الرسول صلى الله
عليه وسلم يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى رسول
الله ، وبويع أبو بكر ، أجمع على منع الزهراء فذلك . فأرسلت فاطمة الى
أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر :
— ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : ائنا معشر الأنبياء
لا نورث ، ما تركناه صدقة . وانى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول
الله عن حالها التى كان عليها .

وقد احتجت الزهراء عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه — زكريا عليه
السلام — « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان
داود » .

فقال أبو بكر :

— يا بنت رسول الله . أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك
ولا أوقعك عن صوابك . ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى
أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركته .

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ان ابا بكر قال : يا بنى رسول الله ، والله ما ورث ابوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الانبياء لا يورثون .

فقالت : ان فذك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : فمن يشهد ذلك ؟

فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها .

فقال ابو بكر : صدقت يا بنى رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فذك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟

قالت : اصنع بها كما يصنع أبى !

قال : فلك على الله أن اصنع كما يصنع فيها أبوك

قالت : الله لتفعلن .

قال : الله لأفعلن .

قالت : اللهم أشهد .

وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك .

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر :

— انطلق بنا الى فاطمة فانا قد اغضبناها . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليها فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام . فتكلم أبو بكر فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك فى رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث . ما تركنا فهو صدقة .

نقالت : أرايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه
ونفعلان به ؟

قالا : نعم .

فقلت : نسيديكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من
رضائي وسخطها من سخطي ؟

قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله .

قالت : فاني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتماني ،
ولئن لقيت النبي لأشكونكما اليه .

فقال أبو بكر : انا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه تزهق .. ثم خرج فاجتمع اليه
الناس فقال لهم :

— يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتموني وما أنا
فيه ؟ لا حاجة لي في بيعتكم ، أقبأوني بيعتي .

ورفض المسلمون ان يقولوا أبا بكر من البيعة خشية الفتنة .

والذي بهمنا من قضية فذك ، أنها تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن
الزهراء رضى الله عنها كانت حينما تؤمن بحق . تتمسك به ، ولا تفرط
فيه .. وهذا خلق لا ينوافر الا فيمن كانت لها الشخصية القوية ،
والارادة الصلبة ، والعزيمة المتينة ، والايمان العميق .

وفاتها

حزنت الزهراء حزنا شديدا على فراق الرسول . حتى روى أنها لم تبسم بعد وفاته ، وزادها الحزن نحولا على نحول ، وضعفا على ضعف ، فخذلت جوارحها ومشى إليها الموت وهى ما تزال فى ميعة الصبا ، وربيع العمر .

وشعرت رضى الله عنها ، بقرب نهاية الاجل ، وانتقالها الى الرفيق الأعلى . فنادت بنيتها فعانقتهم وقبلتهم وملأت عينها منهم ، ثم دعت اليها اسماء بنت عميس فقالت لها :

— يا امه ، اسكبى لى غسلا .

واغتسلت الزهراء كأحسن ما كانت تفتسل ، ثم قالت لها :

— يا امه اثينى بثيابى الجدد .

وجاءتها اسماء بثيابها الجدد ، فلبستها ، ثم قالت لها :

— قد اغتسلت فلا يكشفن لى أحد كتفا ، اتستطيعين أن توارينى بشيء؟ فأجابتها :

— ائى رابت الحبشة يعملون السرير المرأة ، ويشدون العشى بقوائم

السرير فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه وقالت :

— سترتمونى ستركم الله .

وتبسمت رضى الله عنها ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها . واغمضت عينها ، ونامت ، وانتقلت من الدار الفانية الى الدار الباقية .

وكانت وفاتها — على أرجح الأقوال — ليلة الثلاثاء ثلثلاث خلون من رمضان من العام الحادى عشر للهجرة (٢٢ نوفمبر ٦٣٢ ميلادية) ودفنت بالبقيع ليلا حسب وصايتها اذ أنه صلى الله عليه وسلم كان قد دفن ليلا أيضا ، وصلى عليها على بن أبى طالب والفضل بن العباس .

وحزن المسلمون على وفاتها . يقول ابن عباس :
« ولما علمت المدينة بوفاة السيدة فاطمة الزهراء ، ارتجت بالرجال والنساء ودهش الناس كيوم قبض رسول الله صلى الله وسلم » .

أما على رضى الله عنه فقد حزن عليها حزنا لازمه منذ وفاتها ، بعد دفنها الى البيت ، فاستوحشه ، وجزع لفقدائها ، ثم أخذ يقول

أرى علل الدنيا على كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذى دون انفراق خليل
وان افتقادی فاطمة بعد أحمد
دليل على ان لا يدوم خليل

* * *

وقد طويت آخر صفحة من تاريخ حياة فاطمة الزهراء وله شخصيتها مقدسة عند المسلمين ، فهي فضلا عن انها بضعة الرسول وحبيبته وربحانته ، فهي أيضا الصورة المثالية للام الفاضلة ، والسبيل الكاملة .

السيدة نفيسة

رضي الله عنها

مولدها ونشأتها

الشريفة الطاهرة ، البضعة الناضرة ، والزهرة الراحلة ، سليله السيود ،
وفرع الرسالة ، كريمة العنصر والمنبت ، زكية المفرس والمجنح ، نهيسة ،
بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب
رضي الله عنهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« خلقني الناس من أشجار شتى ، وخلقنا أنا وعلي بن أبي طالب من
شجرة واحدة . فما قولكم في شجرة أنا أصلها ، وفاطمة فرعها ، وعلي
لقاحها ، والحسن والحسين ثمارها ، وشيعتنا أوراقها . فمن تعلق بنفس
من أغصانها ساقه إلى الجنة ، ومن تركها هوى إلى النار » .

أبوها الحسن الأنور ، شيخ بني هاشم في زمانه ، واليه انتهت الرئاسة
على بني الحسن في زمنه ، كان أمما ، عالما جليلا ، من كبار أهل البيت ،
ومن سرورات العلويين وأشرفهم وأجودهم ولئى المدينة من قبل الخليفة
العباسي ، أبى جعفر المنصور خمس سنوات . ثم حبسه في بغداد خوفا
منه لدسياسة القيت في أذنه كانت كاذبة خاطئة وما زال في حبسه حتى مات
المنصور فأخرج ابنه وخليفته المهدي وأكرمه وأعادته إلى منصبه ورد له
أكان قد صادر أبوه من أمواله وممتلكاته .

ولما ولئى الحسن المدينة للمرة الثانية كان بها رجل فقير يقال له
« ابن أبي ذئب » فقربه الحسن وأحسن إليه ، وما زال يرعاه حتى صلحت
حاله ، وكثر ماله ، ثم قربه الحسن إلى المنصور ، فلما أصبحت له حظوة
عند الخليفة شرع يتكلم في حق الحسن ، وينم عليه ويدس له ، حتى قال
للمنصور عنه : أنه يطمع للخلافة ! فاستقدمه المنصور وحبسه .

ولما عاد الحسن إلى منصبه في ولاية المدينة معززا مكرما منعما عليه
بالجزيل من الأموال ، ظن ذلك الرجل « ابن أبي ذئب » أن الحسن منتقم
منه ، لكن الحسن كان أسى خلقا ، فقد أخذه بالعفو والاحسان ، فلم
يخاطبه فيما قدمت يداه ، ولا عاتبه ، بل أرسل إليه بهدية عظيمة ، فكان
آية في مكارمه وعلو شمائله .

ومن كريم خلقه ، انه أتى بشباب مخمور ، أثناء ولايته للمدينة ، فقال له الشاب :

- يا ابن رسول الله لا اعود . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبأوا ذوى الهيئات عثراتهم . وأنا ابن أبى أسامة بن سهل بن حنيف . وقد كان أبى مع أبىك كما علمت .

فقال :

- صدقت ، هل انت عائد !

قال :

- لا والله .

فأقاله وامر له بخمسين ديناراً ، وقال له تزوج بها . فتأبى الشاب وحسنت سيرته ، فوالاه الحسن بالاحسان .

وقد قصده الشعراء والمادحون بقصائدهم لكرمه وغزير علمه ، فما خيب لأحد منهم فيه أملاً .

وكان جم التواضع . دخل عليه أحد الشعراء وأنشده : « الله فرد وابن زيد فرد » فغضب وقال . هلا قلت : « الله فرد وابن زيد عبد ؟ » ونزل عن سريره والصق خده بالأرض .

فعل هذا أسوة بالرسول الأعظم . كان اذا عظمه أحد اصحابه او وفؤده مرغ خده فى التراب .

وكان رضى الله عنه تقياً صالحاً مجاب الدعوة ، ختم حياته بأحسن خاتمة ، حيث مات وهو فى طريقه الى الحج . ولما كان موته قريباً من مكة فقد نقل اليها ودفن بها .

أمها ، فأم ولد ، وليس ذلك بضائرها ، ولا ما ينقص من قدرها ، فقديماً تسرى أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر فولدت له اسماعيل عليه السلام ، فكان من نسله رسول الهدى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أبوها الحسن من أم ولد ، وكذلك زيد بن على رضى الله عنهما ، من أم ولد . وقد دخل على هشام بن عبد الملك ، فقال له :

- بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة ، ولا تصلح لها لأنك ابن أمة .

فقال له : اما قولك انى احدث نفسى بالخلافة ، فلا يعلم الغيب الا الله ،
واما قولك انى ابن امة ، فاسماعيل ابن امة اخرج الله من صلبه ، حبر
البشر محمدا صلى الله عليه وسلم ، واسحق ابن حرة ، اخرج من صلبه
القردة والخنزير .

فقال له : قم . فقال : اذا لا ترانى الا حيث تكره . فلما خرج من
الدار قال : ما احب احد الحياة الا ذل . فقال سالم مولى هاشم : بالله
لا يسمعن هذا الكلام منك احد .

وكان يريد رضى الله عنه ، من احسن بنى هاشم عبادة . قال ابو حنيفة :
— شاهدت زيد بن على كما شاهدت اهله فما رايت فى زمانه افقه منه
ولا اعلم ، ولا اسرع جوابا ولا ابين قولا ، لقد كان منقطع القرين ، وكان
يدعى بخليف القرآن .

افلا شية فى أن تكون السيدة الشريفة نفيسة رضى الله عنها من ام ولد ،
فان لها من آباؤها الكرامة والجلالة ، وهى فرع شجرة الرسالة ، وعضو
من اعضاء الرسول ، وبضعة من الامام والبتول ، وهى السيدة العفيفة ،
الطاهرة العابدة .

استهل نورها ، وظهر ضياؤها ، بولادتها بمكة المكرمة فى يوم الاربعاء
الحادى عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس واربعين ومائة من الهجرة .
وما ان بدت اشراقها حتى فرحت بها امها ، واستبشر بها ابوها ، فقد
عقد اليمن بناصيتها ، وامتزج الخير بأنفاسها ، فانطلقت السنة الاسرة
بحمد الله على هذه النعمة الجليلة التى انعم بها عليهم ورزقهم اياها .

نشأت رضى الله عنها ، نبأة نبوية ، فانها بعد ان درجت بمكة ، تحوطها
العزة والكرامة ، استصحبها ابوها ، وقد اوفت الخامسة من عمرها ، الى
المدينة المنورة ، وعاشت معه بداره ، وهو الاطم الذى كان قد ابتاعه .
فهدمه ، وبناه قصرا ، سمي بالحمراء .

وقد اخذ ابوها يلقيها ما تحتاج اليه من امور دينها ، ودنياها . وكانت
تذهب الى المسجد النبوى تسمع من شيوخه ، وتتلقن الحديث والفقه من
علمائه ، وقد سمعت من الامام مالك بن انس موطاه .

حكى الحافظ ابو عبد الله بن برعش فى كتابه « تحفصة الاشراف » ان
الامام زيد الابلج رضى الله عنه جد السيدة نفيسة كان يأخذ بيد ولده الحسن

الأنور والد السيدة نفيسة ويدخل الى قبر جده المصطفى عليه الصلاة والسلام ويقول :

— يا سيدى يا رسول الله ، هذا ولدى الحسن انا عنه راض .

ثم يرجع وينصرف ، فلم كان فى بعض الليالى ، نام زيد فراى الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو يقول له :

— يا زيد . انى راض عن ولدك الحسن برضاك عنه . والحق سبحانه وتعالى راض عنه برضاى عنه .

فلما ولى الحسن المدينة ، كان يذهب الى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأخذ بيد ابنته نفيسة ، وهما بداخل المقام الشريف ويقول :

— يا سيدى يا رسول الله . انى راض عن ابنتى نفيسة . ويرجع فما زال يفعل هذا حتى راي الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول له :

— يا حسن انا راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها . والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاى عنها .

زواجها

بلغت السيدة نفيسة الخامسة عشرة من عمرها ، فرغب فيها شباب آل البيت النبوي من بنى الحسن ، وبنى الحسين رضى الله عنهم ، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب اشراف قريش لما عرفوه من خيرها وبرها ودينها وصلاحتها وما نشأت عليه من عبادة ربها ، واقبالها على طلب العلم . فكان ابوها يابى عليهم ، اجابة طلبهم ، ويردهم ردا جميلا . ثم جاء السيد اسحق المؤتمن بن جعفر الصادق ، يخطبها من ابيها ، فصمت ولم يرد عليه جوابا .

فقام اسحق من عنده ودخل الحجرة النبوية الشريفة وقال بعد السلام :

— يا رسول الله انى خطبت نفيسة بنت الحسن من ابها ، فلم يرد على جوابا واننى لم اخطبها الا لخيرها ودينها وعبادتها . ثم خرج من الحجرة الشريفة .

فراى والدها النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى المنام فقال له :

— « يا حسن زوج نفيسة لاسحق المؤتمن » .

فعقد له عليها فى يوم الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ١٦١ هـ .

واسحق هو بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين رضى الله عنهم .

وكان اسحق من اهل الفضل والاجتهاد والورع والصلاح ، روى عنه الحديث ، وكان ابن كاسب بن يعقوب اذا حدث عنه يقول : « حدثنى الثقة الرضى اسحق بن جعفر » . وقد اخذ اسحق كثيرا من ابيه جعفر الصادق الذى كان اماما نبيلًا ، وعالمًا جليلا ، أخذ الحديث عن ابيه وحده وعين واليا على المدينة من قبل العباسيين بعد ذلك بزمان .

وكان جعفر ، ابو اسحق ، ثقة لا يسأل عن مثله ، روى عنه الكثير من افاضل الرواة قال ابن ابى حازم : كنت عند جعفر الصادق يوما واذا بسفيان الثورى على الباب فقال : ائذن له . فدخل ، وقال له جعفر :

— يا سفيان . انك رجل يطلبك السلطان فى بعض الاحيان ، وتحضر عنده ، وانا اتقى السلطان . فأخرج عنى غير مطرود .

فقال له سفيان : حدثني حديثا اسمعه منك واقوم .

فقال : اليك هذا الحديث .

« حدثني ابي عن جدي عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من انعم الله عليه نعمة فليحمد الله ، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حزبه أمر فليقل لا حول ولا قوة الا بالله .

ثم قال خلدها يا سفيان . ثلاثا واى ثلاث ، فانصرف سفيان بما نال . وكان جعفر رجلا شجاعا مهيب الجانب . راجح العقل ، متقصد الدهن . كثير المناقب والكرامات . وكان مجاب الدعوة اذا سأل الله شيئا لا يكاد يتم قوله الا وهو بين يديه .

ذاك هو اسحق المؤمن اخذ عن ابيه جعفر الصادق كثيرا من علومه وآدابه واخلاقه حتى اصبح له شأنه ومقامه .

كان لهذا الزواج السعيد الموفق اثره في مجرى حياة هذه السيدة الشريفة ، فقد كان متجاوبا مع ما نشأت عليه من حب لله ، وانصراف الى طاعة الجليل جل جلاله .

وبزواج اسحق المؤمن من السيدة نفيسة اجتمع في بيتها نوران : نور الحسن ونور الحسين رضى الله عنهما .

وقد ولدت منه السيدة نفيسة ابا القاسم وام كلثوم ولم يعقبا .

مكث اسحق المؤمن بعد وفاة السيدة نفيسة رضى الله عنها زمنا ليس بالكثير ، ثم توفى ودفن بالمدينة المنورة .

في رحاب خليل الرحمن

قالت زينب بنت يحيى المتوج : « ان عمتي نفيسة كانت تقرا القرآن
ونبكي وتقول :

« الهى وسيدى يسرلى زيارة خليلك ابراهيم عليه السلام » .
كانت تتطلع الى زيارة هذا النبی العظيم ، والرسول الكريم . الذى كان
مثلا رائعا في قوة العقيدة وجلال التضحية ، وروعة الايمان .

شاء الله اختبار يقينه وايمانه ذلك الاختبار الدقيق ، فأمره بذبح ولده
اسماعيل ، فصدع بأمر ربه ، ونجح فيما امتحن فيه نجاحا باهرا .

ولما مات أسكن الله روحه السماء السابعة ، كما جاء في قصة الاسراء
والمعراج على حين أسكن غيره من الأنبياء والمرسلين السابقين سموات ادنى .

وامر الله تعالى ابراهيم واسماعيل ببناء الكعبة فيبنيانها ، ويأمره ان
يؤذن في الناس بالحج فيفعل ويدوى صوته في الآفاق ولا يزال يدوى . .

وهو ابو الأنبياء انه ابو ابيها محمد بن عبد الله رسول الله ، وان له
بشارة به قال الرسول صلى الله عليه وسلم : انا دعوة ابراهيم عليه السلام
حيث يقول : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم
الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » .
وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام :

« انا دعوة ابراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا امي آمنة » .

ورحلت الى الشام لزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام . قالت السيدة
نفيسة رضى الله عنها :

« ما ان بلغت المقام الكبير والضريح العظيم حتى اجهشت بالبكاء . بكاء
السرور لتحقيق امنيتي في زيارة الخليل ثم جلست في خشوع أقرأ من آيات
الله ، ما ورد في خليل الرحمن .

لما كانت قراءتى في تدبر وتفكر وخشوع وخضوع ، احسست حينئذ
احساسا يقرب من المادية ، ان الخليل أمامى ، وحينئذ خفق قلبي .
وخشع بصرى وقلت :

« يا جدى الاكبر . جئت اليك بجسدى وروحى ، وقد جاءت روحى من
قبلى . فهل احظى برضاك ، وصالح دعائك ، وتوجيهاتك الشريفة لى ، حتى
اتعبد لآخر لحظة فى حياتى .

وحينئذ سمعت صوتا مجلجلا يقول :

— يا ابنتى يا نفيسة ابشرى فانك من الصالحات القانتات . وانك باذن
الله موفقة . الا اننى اوصيك بأن تقرئى سورة المزمل وتتدبرى معناها .
وسنعملين طرق العبادة التى لا مشقة فيها لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها .
وانت يا ابنتى تتعبدين الى درجة الارهاق ، الذى يضنى جسدك . ومع ذلك
تتحملين على نفسك وتفرقين فى العبادة .

يا ابنتى : اقرئى قول الله تعالى لرسوله الكريم « ان ربك يعلم أنك تقوم
ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . . الى آخر سورة
المزمل (١) » . وقد جعل الله العبادة فى الليل اختيارية بعد ان كانت اجبارية
لان الله يعلم ان من عباده من يجاهد فى سبيل الله ويسمى انيل رزقه ولا بد
له من الراحة ليقوم بعمله هذا . والجهد عبادة والسعى فى سبيل الرزق
عبادة . وادارة شئون المنزل للسيدات عبادة .

اذكرى ذلك وارحمى نفسك . واعطيهما قسطا من الراحة . لتقوى على
العبادة من غير ارهاق مؤلم . واعلمى أنك موفقة . وانك مباركة وانك فى
الصف الاول بين الصالحين والصالحات . وكونى فى جميع خطواتك القدوة
الصالحة لغيرك ليقنتدى بك من اراد الله له الخير والسعادة .

وحينئذ قلت : يا جدى العظيم ، فقال : أستغفر الله .

قلت : يا جدى الاكبر . سأنفذ هذه التوجيهات . وارجو من روحك
الظاهرة ان تهب روحى صفاء حتى ابلغ ما اتمناه لنفسى من القربى الى الله .
حتى القاه وهو عنى راض . وهذه هى امنيته التى لا امنية بعدها .

فقال : يا ابنتى ابشرى فان الله قد استجاب دعواتك . ولن انسالك
حتى نلتقى فى عالم الروح . فى عالم الخالدين ثم بين يدي الله رب العالمين ،
يوم تجزى كل نفس ما عملت ، والعاقبة للمتقين (٢) .

(١) تقول السيدة نفيسة رضى الله عنها ان جميع الانبياء والمرسلين قد وهبهم الله حفظ
كتابهم البين بقدرته وباللغة التى نزل بها وهى العربية . وهذا اختصاص للانبياء فى برزخهم .

(٢) محمد شاهين حمزة : السيدة نفيسة ، ص ٥٥ - ٦٢ .

صورة وصفية

كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، من السائحات ، العابدات ، نشأت في النسك ، والاخلاص لربها ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ، باعت نفسها لله ، ووقفت حياتها ولذاذاتها على نهوضها بطاعة الله .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : خدمت عمى نفيسة اربعين سنة ، فما رأيتها نامت الليل ، ولا افطرت بالنهار ، فقلت لها :
- اما ترفقين بنفسك يا عمى ؟
فاجابتنى :

- كيف ارفق ، وان امامى لعقبات لا يقتحمها الا الفائزون الصابرون المصابرون ؟

وكانت هي بالمدينة المنورة لا تفارق حرم جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام قارئة ، ذاكرة باكية ، راکعة ساجدة ، ضارعة داعية . وقد حججت الى بيت الله الحرام ، ثلاثين حجة ، اكثرها مشيا على الاقدام ، تحببا في طاعة الله ، وتقربا اليه حتى تظفر منه بالجزاء الاوفى .

وكانت - عليها رضوان الله - تجزئها الوجبة : الاكلة الواحدة في اليوم واللييلة ، بل ربما اجزأتها زمنا اطول من يومها وليلتها .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : كانت عمى نفيسة تأكل في كل ثلاثة ايام اكلة واحدة ، وكانت لها سلة معلقة ، امام مصلاها ، فكانت كلما اشتهدت شيئا وجدته في السلة وكنت اجد عندها ما لا يخطر بخاطري ، ولا اعلم من اين ياتى فعجبت من ذلك ، فقالت :

يا زينب من استقام مع الله تعالى ، كان الكون بيده وفي استقامته .

كانت رضى الله عنها ، كريمة الخلق ، شريفة الطبع ، غراء المكرمات ، فقد صاغها الله من معدن كريم ، وانبتها نباتا حسنا ، فجمعت خلال الفتوة والمزودة ، فكانت معطاءة فياحة ، فياضة نفاحة جملة الميزات كثيرة الصلوات ، وهي مع هذا زاهدة متقشفة ، قد مالت عن زخارف الحياة .

وهب لها احد الأمراء ، مائة الف درهم وقال : خدى هذا المال شكرا لله تعالى . لتوتى . فأخذته . وصرتة صررا بين يديها و فرقت الصرر عن آخرها وكان عندها بعض النساء ، فقالت لها : يا سيدتى . لو تركت لنا شيئا من هذه الدراهم لنشتري به شيئا فنفطر عليه ؟ !

فقالت لها : خدى غزلا غزلته بيدى فبيعيه بما نشتري به طعاما نفطر عليه .

فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بما افطرت به هى واياها . ولم تأخذ من المال شيئا فهى الجوادة الكريمة ، وهى من قوم يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . نشأت زاهدة فى الدنيا . لم تمل بها زخارف الحياة الدنيا . وما كانت تلتفت وابوها امير المدينة له قصوره ، وحدائقه وماله الى شئ من اولئك . بل مالت بطبعها منذ صغرها الى حياة العبد عن بهرج الحياة وزينتها مقبلة على اخرها ، فالدنيا الى نفاذ . وما عند الله باق .
عن ابي هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« يا ابا هريرة : الا اريك الدنيا جميعها ، قلت : نعم فأخذ بيدى الى مزبلة فيها رؤوس اناس وعذرات وخرق وعظام . ثم قال عليه السلام : يا ابا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرس كحرصكم وتأمل آمالكم . ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم ستصير رمادا . وهذه العذرات الوان اطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتجافونها . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم وثيابهم . فأصبحت الرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها اطراف البلاد فمن كان بآتيا على الدنيا فليبك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اذا اراد الله بعبده خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة » .

كانت السيدة نفيسة زاهدة ، وكان امامها فى طريق الزهد هو الرسول الاعظم الذى احاطت بسيرته ، وكان مرشدها هو ما قاله الرسول وما فعل . كان الهدى النبوى هو نبراسها الذى تستضيء به .

كان هجرها للدنيا واقعا على كل ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته ، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزود لها .

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينيها ، حسبنا دليلا على ذلك خفسرها قبرها بيديها وقضاؤها فيه شطرا من وقتها كل يوم تستلهم منه العظات :

وتستوحى الصالحات . ثم هى بعد ذلك زوجة ، وام ، ترعى الله فى زوجها ، وفى ولديها .

وهى محبة للعلم والمعرفة ، تأخذ منهما بحفظها وتعطى منهما ما تشاء ، ولمن يشاء .

كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها تستهدف انهاض الانسان ، وازدهار الحياة .

كانت رضى الله عنها حريصة الحرص كله الا تأكل الا مع زوجها ، برا به وحفاظا على رضاه مؤمنة بأن رضا الزوج من رضا الله ، وكثيرا ما كانت تردد دعاء ماثورا عنها ، هو قولها : « الهى وسيدى ومولاى ، متعنى واسعدنى برضاك عنى ، ولا تسبب لى سببا يحجبك عنى » .

وأكثر ما تقول هذا الدعاء ، وهى متعلقة بأستار الكعبة . طوافه حول البيت العتيق ، تقوله وهى تنشج باكية، هكذا كان دعاؤها الصادر من صميم فؤادها ، الشاكر لأنعم ربها ، الهادف الى دوام رضا المولى عليها المستعبد برحمته ان تمتحن بالحجاب عنه ، لأن محنة الحجاب ، هى اشد ألوان العذاب على الأحباب .

كانت صبورة فى عبادتها ، قوية النفس فى نسكها ، وصيامها وقيامها ، فانها لما احتضرت وهى صائمة ، الحوا عليها بأن تفطر ، فقالت :

— واعجباه انى منذ ثلاثين سنة ، وانا أسأل الله عز وجل ان القاه ، وانا صائمة أفأفطر الآن ، هذا ما لا يكون . ثم اخذت فى قراءة سورة الانعام ، فلما وصلت الى قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم » لفظت نفسها ، وادركتها وفاتها .

كانت رضى الله عنها نبيلة النفس ، محمودة السمائل ، اريحية الطبع ، يتمثل كرم الخلق فى منطقها وافعالها ، وكان أخلاقها سبكت من الذهب المصفى ، وكانما سمائلها اتقى من الندى .

وللقب السيدة نفيسة بكريمة الدارين ، لعوارفها ، وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصدبها ، وبجناح الرحمة لتواضعها . وخضوعها لله جل

جلاله ، وشفقتها ورحمتها وبرها وصلتها لذويها وقاصديها ، ويستظل
زائرها بجناح رحمتها .

رئيسة العلم لما استنبطته من دوائل العلم ، واستجلته من غوامضه
وما نثرته على طالبى الاستفادة منها ، فكان يرجع اليها فى المشكلات ،
ويستصبح بضوئها فى العضلات ، وتشهد اليها الرحال من كل مكان ، فى طلب
ما حذقته واحكمته ، من علوم بيت النبوة . فرضى الله عنها ، فهى من تلك
السلالة الزكية ، والأسرة الحميدة ، التى ورثت العلم والحكمة ، ذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

رحلة السيدة نفيسة الى مصر

احب الشعب المصرى السيدة نفيسة رضى الله عنها قبل قدومها اليه في عام ٩١٣ هـ حينما سمع بأنبائها وهى بالمدينة المنورة وتشوق اليها ، ولما قدمت استقبلها استقبالا رائعا واقامت في دار كبير تجار مصر جمال الدين بن عبد الله بن الجصاص ، واقامت بها اشهرًا ، والناس يقدون اليها زراعات ووحدانا من جميع الآفاق ، يلتمسون بركتها ويرجون دعاءها ، ويرون في اشراقها اشراقا بيت النبوة وعترته المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ثم انتقلت من هذه الدار الى دار أم هانئ ثم انتقلت الى دار ابو السرايا أيوب بن صابز ، فجاء الناس اليها ، واشتد الاقبال عليها والتراحم على بابها حتى عاقها ذلك عما فرضت على نفسها من أوراد وعبادات . فاعتزمت أن تغادر مصر الى المدينة المنورة ، لتقضى بقية عمرها في هدايتها وعبادتها ، ومناجاة ربها ، وتلتزم حرم جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام فاشتد ذلك على الشعب ، وشق عليه أن يفارقه ، وقد لمس نفحاتها ، وعرف تقواها . وما افاضه الله تعالى عليها من فيوضات ، وما يحيط بها من تجليات ومشاهدات . فالتمس منها العدول عن عزمها ، والبقاء في مصر . فابت ، ففزع الى والى مصر السرى بن الحكم يشطعه لديها لترضى . فبعث هذا رسولا وكتابا فأصرت . فجاء اليها بنفسه راجيا ملحا باسم الشعب . فقالت له :

— انى كنت قد اعتزمت المقام في مصر . غير انى امرأة ضعيفة . وقد تكاثر الناس حولى . واكثروا من زيارتى . فشغلونى عن اورادى . وجمع زادى لمعادى . الى ان منزلى هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف . والعهد الكثير ، وقد زاد حنينى الى روضة جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم .
فقال لها السرى :

— يا بنت رسول الله . انى كفيل بازالة ما تشكين منه . وعلى ان امهد لك السبيل . وأهيب لك ما فيه راحتك ، ورضاك . اما ضيق المنزل ، فان لى دارا واسعة بدرب السباع وانى اشهد الله تعالى انى قد وهبتها لك ، واسألك أن تقبلها منى ، ولا تخجلينى بردها على .

قالت السيدة نفيسة :

— انى قد قبلتها منك . ثم قالت :

— ماذا اصنع بهذه الجموع الكثيرة والوفود الغفيرة ؟

اجاب السرى :

— تتفقين معهم على يومين فقط كل اسبوع ، فيهما يكون التلاقى ،
وليكونا السبت والاربعاء . وتتفرغين فى الايام الباقية لمولاك . فقبلت .
وشاع هذا القبول فشاع السرور والفرح فى الناس . وبقيت وطاب لها
المقام فى منبر وسماها الشعب « نفيسة المصرية » حسدا لها . وتقديرا
لشخصها الكريم .

وفاتها

أقامت السيدة نفيسة رضى الله عنها في دارها ، عابدة ، سائحة بتيقة نقيه ، حتى آذنت شمسها بالمغيب ، وتنتقل من دار الفناء الى دار البقاء .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : تأملت عمتى في اول يوم من رجب (سنة ٢٠٨ هـ) وكتبت الى زوجها اسحق المؤمن كتابا ، وكان غائبا بالمدينة تطلب اليه فيه المجيء اليها وموافاتها . لاحساسها بدنو اجلها ، وفراقها لدنياها . واقبالها على اخرها . وما زالت متوقعة الى ان كان اول جمعة من شهر رمضان . فزاد عليها الالم وهى صائمة ، فدخل عليها حذق الاطباء فأشاروا عليها بالافطار لحفظ قوتها ولتتطلب على مرضها فرفضت ثم انشدت تقول :

اصرفوا عني طبيبي	ودعوني وحبيبي
زاد بي شوقي اليه	وغرامى في لهيب
طاب هتكى في هواه	بين واش ورقيب
لا ابالي بفوات	حيث قد صار نصيبى
ليس من لام بعذل	منه فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى	وجفونى بنحيبى

فانصرف الأطباء ، وهم معجبون بقوة يقينها ، وثبات دينها ، وسألوها الدعاء فقالت خيرا ودعت لهم .

وشاءت السيدة الكريمة ان تختم حياتها بالقرآن الكريم ، واستفتحت بسورة الانعام حتى اذا بلغت قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » غشى عليها .

تقول زينب بنت اخيها : فضممتها الى صدرى ، فتشهدت شهادة الحق ، وصعدت روحها الى بارئها فى السماء .

وبكى الناس ، وسمع النحيب فى كل دار .

ووصل زوجها اسحق المؤمن في اليوم نفسه ، ليجدها قد انتقلت الى رحاب الله وليقول لهم : انه يريد ان ينقلها الى المدينة المنورة لتدفن في القبعة .

وحزن الناس حزنا شديدا ، وهرمت جموعهم الى دار الأمير واستجاروا به يريدون ان يتدخل بنفوذه لدى اسحق ان يدفنها في مصر ، وان يرجع عن عزمه ونقلها الى المدينة وبخاصة انها حفرت قبرها بيدها في دارها . فسأله الأمير في ذلك وقال له :

— بالله لا تحرمنا مشاهدة قبرها . فانا كنا اذا نزل بنا امر جئنا اليها في دارها نسألها الدعاء ، فما تنتهي من دعائها الا وقد كشف الله عنا ما نزل بنا . فدعها لتكون في ارضنا ، فاذا نزل بنا امر جئنا الى قبرها ، فسألنا الله تعالى عنده .

فأصر اسحق على نقلها ولم يرض ما طلبه القوم وما عرضه الوالى . فجمعوا له مالا وفيرا اوسقوا به بعيره الذى قدم به من المدينة ، وسألوه ان يقبل هذا المال وبعده عما يريد ، فأبى المال واستنكره ، وأبى العدول عن عزمه ، فتركوا المال وانصرفوا .

فلما أصبح الصباح ذهبوا اليه ليجددوا له الرجاء ، فوجدوه على غير ما تركوه بالأمس . قال لهم انى رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومي فقال لى : رد عليهم اموالهم وادفنها عندهم ولا تعارض اهل مصر فيها .

وكان يوم دفنها يوما مشهودا : ازدحم فيه الناس ازدحاما شديدا ، كلهم يريد ان يشترك في الصلاة عليها وتشيع جنازتها . واديت الصلاة في مشهد حافل جليل ، لم ير له مثيل ، ودفنت في قبرها الذى حفرته بيدها .

كرامات السيدة نفيسة في حياتها

الكرامة امر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح من عباده اكراماً له ، دون ان يكون للعبد سلطان في هذا الامر . اى ان الله تعالى قد يعجزى الكرامة على يديه دون قصد ولا ارادة منه .

وتكلم الناس في الفرق بين الكرامات والمعجزات .

يقول الامام أبو اسحق الاسفراينى :

المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبى . كما أن العقل المحكم لما كان دليلاً للعالم في كونه عالماً لم يوجد فيه من لا يكون عالماً .

وقال القاضى ابو بكر الأشعرى :

ان المعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للاولياء كما تكون للأنبياء ولا تكون للاولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة افتتان دعوة النبوة بها . والمعجزة لم تكن معجزة لغيرها . وانما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة ، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة . واحد تلك الشرائط ، دعوى النبوة والولى لا يدعى النبوة . فالذى يظهر عليه لا يكون معجزة .

ويقول المناوى في مقدمة الطبقات :

« وهى جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآنى والحديث النبوى اما القرآن فللقصة اهل الكهف حيث اقاموا فيه ثلاثمائة سنة وازيد نياما احياء بلا آفة ولا غداء وليسوا بأنبياء باجماع الفرق . وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر ووجد الرزق عندها بلا سبب ، وتساقط عليها الرطب من شجرة يابسة بلا موجب .

وقصة واصف بن برخيا حيث احضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة في طرفة عين .

واما السنة فحديث جريج الراهب الذى كلمه الطفل الرضخ كما في الصحيحين ، وحديث اصحاب الفار الذى انطبق عليهم الصخر ، وحديث البقرة التى ركبها صاحبها فالتفت اليه وكلمته . ومن حوادث الصحابة صيحة عمر - يا سارية الجبل . واضاءة السوط

كالمصباح لاسبد بن حضير في ليلة مظلمة » .
ومن الكرامات التى رويت عن السيدة نفيسة ، لتبين مدى الرعاية التى
شملها الله عز وجل بها . . ما يلى : -
عن سعيد بن الحسن . قال :

توقف النيل في زمن السيدة نفيسة رضى الله عنها فقلق الناس وجاءوا
الى السيدة نفيسة يسألونها الدعاء . فلبت ودعت . واعطتهم قناعتها
فجاءوا به الى النهر وطرحوه فيه . فلما رجعوا . حتى زخر النيل بمائه
وزاد ريادة عظيمة .

• طلب حاكم ظالم انسانا في امر تافه ، ليعذبه ، فجاء الرجل الى
السيدة نفيسة واستجار بها فدعت له ان ينقيه الله من ظلم ذلك الحاكم
وقالت له : « امض اليه فعد حجب الله تعالى عنك نظر الظالمين » . فذهب .
وادخل عليه وارقف امامه مع الواقفين . فلم يره فسأل عنه اعوانه :
اين فلان ؟

فقالوا : ها هو انه واقف بين يديك . .

فقال : ما لي لا اراه ؟ انى والله لا اراه .

فقالوا له : انه مر بالسيدة نفيسة ، فانستجار بها وسألها الدعاء .
فدعت له بخلاصه من الظالمين .

قال الحاكم : وهل بلغ من ظلمى ان يحجب الله عنى المظلوم بالدعاء ؟
يارب انى تبث اليك . فلما تاب وكان مخلصا في توبته رأى الرجل واففا
امامه مع الواقفين . فقربه واكرمه وتصدق على الفقراء والمساكين . وبعث
الى السيدة نفيسة بمبلغ كبير فقسيمته صررا ووزعتها عن اخرها على
المحتاجين .

• تزوج رجل من اهل المغافر بامراة ذمية فجاء منها بولـه . فاسر في
بلاد العدو . فاخذت المرأة تبحث عنه في كل مكان حتى اعيهاها الامر وقصدت
البيع تسأل عن الاسرى وابنها بينهم فيها دون نتيجة حتى يئست .
واخيرا قالت لزوجها :

- بلغنى ان بين أظهرها امراة صالحة مجابة الدعاء . يقال لها نفيسة
بنت الحسن . اذهب اليها . فلعلها لولدنا فيعود الينا فقد برح بنسا
غيابه الطويل . فان جاء آمنت بدينها .

فجاء الرجل الى السيدة نفيسة وقص عليها القصة فدعت له ان يرد الله عليه ولده . وعاد الرجل الى بيته .

فلما كان الليل اذ بالباب يطرق فخرجت المراد فاذا بابها على الباب . وبعد ان فرح الجميع بعودة الغائب . سالته أمه عن أمره فجعل يحدتها واباه عن أمره وكيف عاد . فقال : كنت واقفا بأمامه على باب المدخل في الوقت القلاني (وهو الوقت الذي دعت فيه السيدة نفيسة) رأيت في خدمتي . فلم اشعر الا ويد وقعت على القيد وسمعت من يسبون اولاده فقد شفعت فيه السيدة نفيسة بنت الحسن . فاطلقت من النبل ثم لم اشعر بنفسى الا وانا على راس محلتنا هذه فسرت حتى وقفت على الباب وطرقت فخرجت انت .

وشاعت هذه الكرامة في الحى فأسلمت المراد واسلم معها عدد كبير من اهل الحى وصارت المرأة من خدام السيدة نفيسة اعترانا بغضائها .

● خرجت امتهاجورة في ليلة ذات مطر غزير لاني سيدتها نفيسة بماء للوضوء فاخذت تخوض في ماء المطر المنهمر في ذهابها وابيها وعادت دون ان تبذل لها قدم .

● كان لامرأة عجوز اربع بنات وكن جميعا يتقوتن من غزلهن تجمع امهن غزلهن في اسبوع وتمضي به الى السوق وتبيعه ثم تشتري بنصف الثمن الذي حصلت عليه كتابا وبالنصف الثاني ما يكفيهن من الطعام اسبوعا .

وحدث في يوم من الأيام ان اخذت الأم غزل بناتها وخرجت من دارها الى السوق في يوم جمعة كعادتها في كل اسبوع ، وبينما هي في طريقها والغزل فوق راسها ملفوفا في قماش احمر انقض طائر فجأة على رزما العسل واحنطها وارفع ، ووقعت المرأة على الارض مبتدووه وغتى عليها ، فلما اقامت بكت على غزلها الذي ضاع واخذت تتسائل وهي تدرف دموعها ماذا تفعل بايتامها ومم نطعمهن اسبوعا واستمع الناس الذين يجتمعوا حولها الى قصتها المحزنة ، واثار اليها بعضهم ان تذهب الى السيدة نفيسة وتسالها الدعاء ان يفرج عنها ما نزل بها من كرب عسى الله ان يزيل عنها ما بها ببركة ايمانها فمضت اليها وقصت عليها قصتها باكية . فاشفقت عليها السيدة نفيسة ورحمتها ، وقالت :

« يا من علا فقدر وملك فقهر ، أجبر من امتك هذه ما انكسر . فانهن خلقت وحيالك .

دعت لها بهذا الدعاء وطلبت اليها أن تبقى فان الله على كل شيء قدير ،
فقدت المرأة وفي قلبها من جوع بناتها التهاب .

وبعد فليل . . أقبل جماعة يطرقون باب السيدة نفيسة ويستأذنون
في الدخول فأذنت لهم فدخلوا تحدثوا اليها وقالوا أن لهم أمرا عجيبا .
وقالوا : نحن من التجار كنا مسافرين في سفينة قلمنا قربنا من بلدكم
اصطدمت سفينتنا بصخرة وانفتحت وأخذ الماء يتسرب من هذه الفتحة
ونحن نحاول سدها فلا تنسد . فاستغثنا بالله تعالى ، وذكرنا . وتوسلنا
بك اليه أن ينقذنا من هذا البلاء الذي حم . فاذا بطائر يطير فوقنا ويلقى
علينا خرقة بها غزل . فوضعناها في المكان المنفتح فانسد باذن الله تعالى
وبركك وسامنا وقد جئنا بخمسمائة درهم فضة هدية شكرا لله تعالى
نبكت السيدة نفيسة وقالت :

— « الهى ما أراك والطفك بعبادك الحمد الجميل والشكر الجزيل » .

ثم نادى العجوز وقالت لها :

— بكم تبيعين غزلك كل اسبوع ؟

فقلت :

— بعشرين درهما .

فقلت لها :

— ابشرى فان الله تعالى عوضك عن كل درهم خمسة وعشرين درهما .
وقصت عليها قصة التجار والسفينة والغزل ودفعت لها ذلك المبلغ .
فخرجت العجوز باكية من شدة الفرح وهولت الى اولادها . تخبرهم بما
حدث . وكيف رد الله عليها غزلها ببركة السيدة نفيسة رضى الله عنها .

● كان في جوار السيدة نفيسة يهودى له ابنة مقعدة .

فقلت لها امها ذات يوم : انى ذاهبة الى الحمام ، ولا ادري ما اصنع
بك فهل لك أن نحملك معنا ؟

اجابت : لا .

قلت : هل تقيمين في البيت وحدك ؟

قلت البنت : لا ، ولكن احملينى يا أمه عند هذه الشريفة التى في
جوارنا . حتى تعودى . فدخلت اليهودية على السيدة نفيسة واسئذنتها

فى المجرى بابنتها الى دارها فإذنت . فجاءت بها ووضعتها فى جانب من البيت ومضت .

وحان وقت صلاة الظهر فأحضرت السيدة نفيسة ماء وتوضأت ، فجرى من مائها شيء الى جانب الصبية فجعلت تبل بدها منه وتمر على أعضائها فزال عنها ما كان بها باذن الله وهبت تمشى على رجليها وكأنه لم يكن بها شيء . فلما جاءت امها خرجت اليها ماشية فسألتها فأخبرتها بما حدث فعجبت وأسلمت وأسلمت معها اسرتها وأسلم من علم بالقصة من حيها .

نفيسة العلم والمعرفة

السيدة نفيسة رضي الله عنها من أهل بيت زقوا العلم زقا ، وهي نالمة غير معلمة . وفهمة غير مفهمة ، فمادة علمها مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع وافيض عليها الهاما .

وكان لها مكانة مكيمة بين الأئمة وأساطين المجتهدين . ومما يثبت ما لها من اجلال واكبار في قلوبهم ، ما روى أن بشر بن الحارث - وكان من جلة علماء عصره ، زاهدا ورعا جمع في صدره بين علمي الشريعة والحقيقة - وكان من زوارها وقد مرض وعادته السيدة نفيسة ، وبينما هي عنده في أثناء عيادته اذ دخل الامام أحمد بن حنبل ليعوده - ولما عرف من بشر أن هذه السيدة هي نفيسة بنت الحسن أحسن تحيتها ، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات وكان هذا الطلب دليلا على علمه بمقامها للروحي العظيم ، وبدعائها المستجاب .

فقال لها بسر :

- أيتها السيدة الجليلة المقبولة الدعوة . انا نسألك جميعا خالص الدعاء .

فسمالت :

- اللهم ان بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا ارحم الراحمين . وبعد أن دعت لهما دعاءها ، طلبت اليهما أن يدعوا لها فوافقا ، وتقول السيدة نفيسة رضي الله عنها :

« لقد نعمت بمعرفة الأخ في الله الامام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث ، وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة وعلو القدر عند الله وقد استجبت لطلبهما ودعوت لهما ، كما طلبت اليهما أن يدعوا لي فكان ذلك . والله مجيب .

وكان من زوارها الامام الشافعي ، وكانت دارها بالنسبة له - بمثابة الواحة الوارفة وسط صحراء جرداء . وقد اعتاد أن يزورها وهو في طريقه الى حلقات درسه في مسجد الفسطاط ، وفي طريق عودته الى داره . وفي غير ذاك من الاوقات .

وكان يسمع منها الحديث النبوي الشريف . ويصلى التراويح في شهر رمضان في مسجدتها . وكثيرا ما كان يسألها الدعاء . وكان اذا مرض بعث اليها بأحد أصحابه كالربيع الجيزي . والربيع المرادي فيقول لها :

— ان ابن عمك الشافعى مريض ويسألك الدعاء .
فترفع بطرفها الى السماء . وتدعو له . فلا يرجع رسوله الا وقد عرف
الشافعى من مرضه .

فلما مرنس مرضه الأخير الذى مات فيه ارسل اليها على جاري مادته ،
ملتصسا منها الدعاء فقالت للقاصد :

— متمه الله بالنظر الى وجهه الكريم .

فلما عاد الناصر سأله الشافعى عما فعل فنقل اليه ما قالت . فطمأنه
ميت . وأخذ يوصى . ثم أوصى أن تصلى هى عليه فى رحاب بيتها .

فلما توفى جاءوا به الى بيتها تنفيذا لوصيته ، بعد أن صلى عليه
أبو يعقوب البويطى أحد اصحابه صلاة الجنازة مع المشيعين . فدخلت هى
عليه مرة أخرى مع لقيف من السيدات الصالحات . وقد بارك الرسول
صلى الله عليه وسلم هاتين الصلاتين اللتين لم يسبق لهما مثل فيما مضى .
وروى أحد الصالحين ممن حضر صلاة جنازة الشافعى ، قال عقب أداء
الصلاتين :

ان الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعى بالشافعى ، وغفر للشافعى
بصلة السيدة نفيسة رضى الله عنها عليه .

وقد أثبت رضى الله عنها على الشافعى فقالت : « يرحم الله الشافعى ،
انه كان يحسن الوضوء » ، ونهذه على ايجازها شهادة عالية جامعة ،
تحتوى طي كلماتها القصار المعانى الرائعة لأن الوضوء أساس العبادة ، وإذا
كان الأساس حسنا فان كل ما يبنى عليه حسن . فكأن لسان حال هذه
الشهادة الموجزة البليغة يقول : ان الشافعى رضى الله عنه ، كان حسن
الاجتهاد .

وقد زارها فى حياتها اكابر العلماء .. عثمان بن سعيد المصرى ، المنقب
بورش ، وذو النون المصرى وعبد الله بن الحكم ، وعبد الرحمن بن عبد الله ،
وأبو موسى يونس بن الأعلى الصدقى وأبو على الروزبارى ، وأبو الحسن
الدينورى ، وأبو بكر أحمد بن نصر الدقاق ، وبنان بن أحمد الواسطى ،
وشقران بن عبد الله المغربى .. وغيرهم من الأكابر .

يقول الامام الشعرانى فى لطائف المتن يصف إحدى زياراته لها :
وقد دخلت عليها مرة فوقفت على باب مشهدها ناديا ، ودخل أصحابي
الى قبرها . فلما نمت جاءتني ، وعلى رأسها مئزر صوف أبيض وقالت لى :
انا نفيسة . اذا جئت للزيارة فادخل الى قبرى ، فقد أذنت لك . فمن
ذلك اليوم ادخل لزيارتها وأجلس تجاه قبرها .

الحياة البرزخية

الإنسان جسد وروح . . فاذا فارقت الروح الجسد . بدأت حياة البرزخ (١) . وحياة البرزخ ليست امتدادا لحياة الدنيا : فهي مغايرة لها ، وليست على شاكلتها والا كان الانتقال اليها عبثا وتكرارا ، فضلا عن أن الواقع المشاهد يؤيد تلك المغايرة : فما رجع أحد من الحياة البرزخية الى الدنيا حتى يكون شاهد صدق على أنها امتداد دنيوى .

وهي ايضا ليست الحياة الآخروية ، لأن الحياة الآخروية لها ميقات وأشراط وعلامات ما زالت في علم الله تعالى .

فالحياة البرزخية اذن حياة بين حيتين :

حياة نيتها حياة . تحلل فيها الميت من ظلامه وطينيته ودخل منطقة الروح والحق والنور ، فرأى فيها ما حجب عنه في الدنيا وأبصر ما غط عليه . وعلم فيها ومنها ما كان وسيكون .

((فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)) .

ورأى منها مكانه في العالم الآخروى ومكانته يوم القيامة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان احذركم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ان كان من اهل الجنة ، فمن اهل الجنة ، وان كان من اهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

في الحياة البرزخية صديقون وشهداء احياء في قبورهم ، وفيها جاحدون كافرون معذبون في رمسهم .

وفيها رسل الله من ملائكة ، وأنبياء يعيشون في أجوائها ، يسمعون ويرون ويحسون ويشعرون .

يقول الامام الشعرانى في كتابه « الجواهر والدرر » :

« ان ارواح الانبياء وارواح الكمل باقية على الخدمة في جنة البرزخ ،

(١) البرزخ في اللغة : الحاجز بين الشيئين . والوقت الذى بين الموت والبعث . والبرزخ الحاجز الفاصل الذى يمنع الشيء من أن يختلط بغيره . قال الله تعالى : « بينهما برزخ لا يبغيان » . أى حاجز يمنع البحرين من أن يختلط احدهما بالآخر .

لكن خدمتها هناك دون خدمتها في دار الدنيا ، وذلك لأن البرزخ له وجه واحد الى طالب التكليف وهو الذي الى الدنيا ، اما الوجه الآخر فهو الى الآخرة ولا تكليف هناك » .

ويقول ابن القيم :

والأرواح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخوانها وأصحاب عملها ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة ونعيم ، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير » .

ويقول أيضاً ابن القيم :

لقد تظاهرت الأدلة من القرآن ، والسنة ، والآثار ، والاعتبار ، والعقل ، والقول ، ان الروح ذات قائمة ، تصعد وتنزل ، وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء ، وتنحرك وتسكن ، وعلى هذا القول أكثر من مائة دليل .

ويقول عبد الكريم الجيلي :

إذا كانت الأرواح في الدنيا على الخير كانت مطلقة على الخير في البرزخ .
وان كانت في الدنيا على الشر كانت مطلقة على الشر فيه .

ويقول الامام الرازي في تفسيره :

ان الأرواح البشرية الخالية من العلائق الجسمية ، المشاة الى الاتصال بالعالم العلوي بعد خروجها من ظلمة الأجساد ، تذهب الى عالم الملائكة ، ومنازل القدس ، ويظهر منها آثار في أحوال هذا العالم . فهن المديرات أمرا ؛ اليس الانسان قد يرى استباده في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده الى حلها .

عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فاذا هو قبر انسان يقرأ سورة « الملك » حتى ختمها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي المانعة ، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر . (رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب) .

والأرواح تتألف وتتعارف .

وأرواح الأموات تتلاقى بأرواح الأحياء ، والواقع المنامي ودنيا الرؤى والأحلام تثبت ذلك اللقاء الروحي وتؤيده .

وأرواح الأموات تتقارب وتتعارف بأرواح الأموات ، يدل على ذلك ما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه ابن أبي الدنيا ،

قال : لما مات بشر بن البراء بن معرور حزنّت عليه أم بشر حزنا شديدا ، فقالت : يا رسول الله ، انه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلامة ، فهل يتعارف الموتى فأرسل الى ولدى بشر بالسلام ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، والذي نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رعوس الشجر .

فكان لا يهلك هالك من بنى سلامة الا جاءته أم بشر عقيب وفاته فقالت :

— يا فلان عليك السلام ، اقرأ على بشر السلام .

وقال عبيد بن عمير : ان اهل القبور يتوكلون (يتتبعون) الأخبار ، فاذا اتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟

فيقول : ألم يأتكم ؟ أما قدم عليكم .

فيقولون : لا .

فيقول : انا لله وانا اليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا .

وعن ابي ايوب الانصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها اهل الرحمة عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا ، فيقول : انظروا احاكم حتى يستريح ، فانه كان في كرب شديد . فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ فذا من لوه عن رجل مات قبله قال : انه مات قبلى .

قالوا : انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى أمه الهاوية فبئست الام وبئست المربية .

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف : ان الروح تبقى في البرزخ حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح سبحا في ملك الله حيث اراد الله وقدر ، وتتصل بالارواح الأخرى ، وتأنس بها وتناجىها ، سواء اكانت ارواح احياء ام ارواح اموات .

وقال ايضا :

وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من اصناف بنى آدم على فعل الارواح بعد موتها ، وانها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر ارواح الأحياء عندها ، وتقضى حوائج الناس ، وانها تقدر على ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن في الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة ، وغير متمثلة . وظاهر ان هذا هو لبعض الارواح النبي يؤدى لها بذلك .

يقول الأستاذ الشيخ محمد بخيت الطيعي مفتى الديار المصرية الأسبق :
« أن ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لا يخالف صريح القرآن ،
لأن هذا التصرف الذي ينسب للأولياء هو نوع من الكرامات وهو فعل الله
وخلقه ، يظهره الله إكراما لهم تارة بالهام ، وتارة بمنام وتارة بدعائهم وتارة
بفعلهم واختيارهم وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم ، بل قد
يحصل من الصبى المميز ، وتارة بالتوسل إلى الله تعالى بهم في حياتهم
وبعد مماتهم مما هو محكى في القدرة الإلهية . ولا يقصد الناس بسؤالهم
ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والاستقلال بالأفعال ،
فإن هذا لا يقصده مسلم ولا بخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم .

وقال : وليس هذا التوسل ممنوعا أصلا ، لما علمت مما تقدم ، من
أن التوسل بالولي إنما يطلب من الله إجابة طلبه إكراما لهذا الولي لاعتقاده
أن هذا الولي أقرب منه إلى الله تعالى ، وهذا لا فرق فيه بين الحي والميت
لما تقدم من أن الفاعل هو الله تعالى ، بل إنه بعد الموت أقرب منه حال
الحياة النبوية ، لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شؤون البدن .

وقال : وكما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت ،
والفعل لله وحده ، يجوز أو يتوسط روح ميت في قضاء مصلحة حي أو
ميت والفعل لله وحده . والأرواح باقية على الحياة وأفعالها في عالم الملك
إنما تظهر بواسطة البدن بالحياة الحيوانية فإذا مات وقعدت الحياة الحيوانية
بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على
وجه آخر يعلمه الله تعالى كما دل عليه نعيم القبر وعذابه ، فإذا كان الفعل
والروح باقية خالدة . ففعلها باق وتصرفها في أفعالها لا يتغير إلا بعدم
ظهور الأفعال بواسطة البدن . فلا مانع عقلا أن يكون بعض أرواح الأولياء
والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائهم وتوجهها إلى الله تعالى في قضاء
حوادث بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل في
التأثير - وإى فرق بين التوسط بالأحياء في قضاء الحوائج مع الاعتقاد
أن لا فاعل أى لا خالق للفعل غير الله وبين توسط أرواح الأموات في اعتقاد
ذلك ؟

والقول بأن ملوك الدنيا إنما يحتاجون إلى الوسوسة - أنك لجواز الغفلة
عليهم عن حوائج الناس بخلاف العليم الخبير ، سفسطة ظاهرة ، وتمويه
على العقول ، فإن الملك ووسائطه واسطة في قضاء حوائج الطالب من الله
تعالى أى لا فاعل سواه ، فلو كان اتخاذ الواسطة شركا بعد اعتقاد أن المؤثر
هو الله تعالى وحده لكانت معاونة بعضنا بعضا في قضاء المصالح شركا -

وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد نظام العالم وعدم نسبة الأفعال الاختيارية الى فاعليها فتبطل الحدود والزواجر ويختل النظام .

قال المناوى فى شرح عينية ابن سينا فى النفس . قال الناظم فى كتاب زيارة القبور : تعلق النفس بالبدن عظيم جدا حتى انها بعد المفارقة تشتاق وتلتفت الى الأجزاء البدنية المدفونة ، فاذا زار انسان قبر انسان آخر ونغاضى عن العلائق الجسمانية والعلائق الطبيعية توجهت نفسه الى العالم العقلى فتواجه نفسه نفس الميت وتحصل منها المقابلة كما فى المرآتين فيرسم فيهما صورة عقلية بطريقة الانعكاس ويحصل لها بذلك كمال .

ان زيارة القبورة تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والأموات . وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور . وهذا يختص بالأنبياء والأولياء والصالحين .

ان الانسان يتأثر بتصوراته وان نفسه تحت قهر سلطان الوهم ؟ فكم من انسان تحقق ان سيقتل لا محالة فتصور الموت واقعا به فمات بسبب ذلك قبل ان يقتل - كذلك اذا زار الانسان مشهد الحسين رضى الله تعالى عنه واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلا قلبه اخلاصا فيدعو الله مخلصا موقنا بالاجابة خصوصا اذا اعتقد ان روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى اجابة دعاء زائره . اليس ذلك سببا فى اجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين والله هو المؤثر .

ولا نرى مسلما ولو عاميا يتوهم فضلا عن أن يعتقد الله شريكا فى خلقه ، فمهما اعتقد الزائر أن المزور أظهر منه روحا وأصفى نفسا بما أعطاه الله تعالى من الكمال الانسانى وأن كان العوام لا يستطيعون التعبير عما تكنه صدورهم من حسن العقيدة وكمال الإيمان .

كرامات السيدة نفيسة بعد وفاتها

السيدة نفيسة رضي الله عنها تفيض في برزخها ، كما كانت تفيض في الحياة الدنيا حيوية ومحبة ، ومن علاها تمد يدها ، وتهدي علمها . ونبت ايماءاتها للاحياء بالعمل الصالح والاقبال على طاعة الله جل جلاله .

ولها رضي الله تعالى عنها كرامات لا حصر لها ، هي آية على اكرام الله تعالى اياها ، وعلى ما خص الله به آل البيت النبوي الكريم من كرامات وأسبغ عليهم من نفحات وفيوضات .

● كان بمصر رجل يقال له : عفان بن سليمان المصري ، وجد في داره مالا مدفونا ، فتصدق منه على الفقراء والمساكين والأيتام واليتامى وابناء السبيل . وكان لا ينام حتى يطعم خمسمائة بيت منهم . ويتلقى الحاج من العقبة ، ويحمل المنقطع منهم . واشترى من وزير مصر - احمد بن سهل - أنف حمل برا ، ثم حصل غلاء شديد ، بلغ فيه ثمن البر ثلاثة أمثال الثمن الذي اشتراه به ، فأراد الوزير أن يشتريه منه بالثمن الحاضر ، فأبى . وقال : انما ادخر ثمنه عند الله تعالى ، وفرقه على الفقراء والمساكين . فتغيظ منه تكين أمير مصر ، وكان جبارا عيدا ، شكاه الناس لأبى الحسن إله الدينوري ، فوعظه ، فلم يقبل وأخرجه الى بيت المقدس ، وشكوه الى بنان ابن احمد الواسطي الواعظ ، فوعظه ، فلم يقبل ، وأخرجه الى بلاد المغرب ، فأمر بسلب أموال عفان المذكور . فتوجه عفان الى الشريف على بن عبد الله ، وأخبره بالأمر ، وأنه عازم على مهاجرة مصر الى غيرها من البلاد . فتوجه به الشريف على الى مقام السيدة نفيسة . وجلس كل واحد منهما في جانب من القبر الشريف . وقرأ شيئا من القرآن الكريم . وتوسلا بها الى الله تعالى في أن يدفع ظلم تكين عن عفان ، ويفرج كربه ، فأخذتهما سنة من النوم ، فرأى الشريف على السيدة نفيسة تقول له :

... خذ عفان ، وتوجه به الى تكين ، فقد قضيت حاجته .

فاستيقظ وتوجه به اليه ، فلما دخل عليه ، وقف تكين على قدميه ، وهو ترتعد فرائصه ، وقد حم لوقته . وقال :

— رايت السيدة نفيسة تقول لي ، اكرم الشريف عليا ، وارجع عن عفان ، فانه استجار بنا .

فقال الشريف : هذا عفان بين يديك

فقال تكين : والله لم اره . يا رب انى تأتب . فأبصره فى الحال . وقال له : انت عتيق السيدة نفيسة واکرمهما . وتصدق بمال وفير ، وحسن شأنه ، واحسن الى اهل مصر . ولازم زيارة السيدة نفيسة ، الى ان توفى يوم السبت العاشر من ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة . وحمل الى بيت المقدس ، كوصيته ، وكان يقول : اهل مصر يخافوننى ، وانا اخاف دعوة عفان عند ضريح السيدة نفيسة ، واقام بعده ونده على طريقته فى الاحسان والزيارة . وتوفى عفان فى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة ، ودفن فى طريق مصر .

● حكى عن أبى العز اليمانى ، انه قال : كنت عزيزا فى قومي ، أثرا فى عشيرتى ، من أكثرهم مالا وضياعا ، فاستطلت بنفسى وشمخت بأنفى وتكبرت على الناس . واحتقرت أمرهم فلم ألث حتى ذهب مالى ، فضاقت بى الأرض بما رحبت ، وعزائى الصديق ، وفرح الحسود فقال لى صديق : عليك بالصالحين عسى الله ان يفرج عنك ما نزل بك ، فاعتزلت الناس ، فرايت فى نومي كانى فى فضاء واسع ، فيه نور ساطع ، يظهر تارة ويختفى تارة أخرى . فأخذنى العجب من ذلك فاذا بقائل يقول : هذا نور السيدة نفيسة بنت الحسن . فقلت : عسى الله أن يجمع بينى وبينها فأسألها الدعاء بزوال كربتى . فقيل لى : انها ماتت . فقلت : أغنم بركة زيارتها . فسمعت من يقول : انا نفيسة يا أبا العز . فارق نفسك ، وانزع عنها سوءها .

فقلت : فارقتها فرقة لا عودة لى اليها . وانى تبت الى الله عز وجل مما فرط منى .

فقالت : أبشر . فقد قبلت التوبة . وزالت الحوبة .

فأصبحت فرحاً بما رأيت وانصلح حالى بعد قليل من الأيام . وزادنى الله - بفضلله وكرمه - أضعاف ما كنت فيه . ببركتها رضى الله عنها .

● أورد ابن اياس ، فى حوادث سنة ٩٢٦ ، ان شخصاً يقال له محبى الدين ابن مشرى ، كانت له ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكناً فى المراغة ، بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها . وكان على رأس تلك البنت كوفية من الذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة ، وكان لهم جار صبي أمرد ، فطمع فى الكوفية الذهب التى على رأس البنت ، فلعب بعقلها ، وقال لها أمك فى السيدة نفيسة ،

وأرسلت تطلبك هناك ، فمضت معه ، وأخذ معه عبدا أسود ، فلما توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة القيا بالبنت فذبحها هناك . وحملها والقيها في فسقية هناك ، وأخذ الكوفية التي على رأسها وتركها تتجسط في دماها ، فاقامت هناك يوما وليلة ، نكث النفيش عليها من امها أبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار بمرافقه الكوفية الذهب التي كانت على رأس ابنته ، فاذا راوها ، أتوه بها ، فبينما هو في الصاغة ، وإذا هو بالصبي الامرد يعرض الكوفية للبيع ، فقبضوا عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشيفا ، فلما عرضوه على الوالي ، أقر بأنه أخذ الكوفية ، من فوق رأس البنت ، وأنه ذبحها ، ورماها في فسقية ، خلف مزار السيدة نفيسة ، فقالوا له : امض معنا ، وارنا ذلك المكان الذي رميتها فيه . فخرج معهم ، وهو في الحديد ، وأتى بهم الى تلك الفسقية التي رماها فيها ، فنزل ابو البنت اليها ، فوجدها راغدة . وهي مذبوحة وفيها بعض روح ، ولم ينقطع ويردها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية ، فلما بلغ الأمير ذلك ، أرسل فأحضر الجميع بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبي وما جرى له مع البنت ، فحزن الأمير . وقال لها : من فعل بك هذا ؟ فأشارت الى الصبي والعبد الأسود الذي على باب البيت ، الذي تسكن فيه البنت ووالدها واحضروا للبنت من ضمدها لها جرحها الذي برقيتها وعاشت بعد ذلك وبرات من الجرح .

وقد قالت البنت ، انه بعد أن القيا بها في الفسقية ، دخلت عليها امرأة ، وعلى وجهها قناع وقالت : لا تخافى انى أنا السيدة نفيسة ، وغدا تخلصين من هذا المكان . ثم مسحت الدم من رقبتي فانتقطع في الحال . وسكن روعى مما كنت فيه .

● قال الامام الشعراني رحمه الله تعالى : دخلت انا لقبر السيدة نفيسة مرة ، فوقفت على باب مشهدها الاول ادبا ، ودخل اصحابي الى قبرها ، فلما تمت جاءتنى وعلى رأسها مئزر صوف ابيض . وقالت لى : أنا نفيسة فاذا جئت للزيارة ، فادخل الى قبرى فقد اذنت لك . فمن ذلك اليوم ، وأنا ادخل لزيارتها وأجلس تجاه وجهها .

● وقال الامام الشعراني : رأيت في كلام الشيخ ابى المواهب الشاذلى انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اذا كان لك الى الله تعالى حاجة فانذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم ، يقض الله تعالى حاجتك .

● ذكر المرحوم محمد فيضى باشا مدير الاوقاف المصرية سابقا : فقدت والدتى عقدا ثمينا لها من اللؤلؤ وبحثت عنه كثيرا فلم تجده . فتوجهت الى

مقام السيدة نفيسة وطلبت من الله عز وجل أن يرده اليها ببركتها ، وعادت ونامت . وفي نومها رأت السيدة نفيسة تعطيها العقد وتقول لها « تحفظي عليه » فاستيقظت . فوجدته في يدها .

● ذكر المرحوم محمد باشا فوزى : انه لما كان في اسبوط رئيسا لمجلس الاستئناف رأى وهو في حالة بين اليقظة والنوم ، بعد أن ادى صلاة الفجر سيدة دخلت عليه وقالت له : « انتقل من هذا البيت في هذا اليوم حالا » فاستيقظ واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم عاد الى ما كان عليه من نومه . فقرأ ما فقالت له ذلك أيضا . فاستيقظ مدعورا واستعاذ بالله العظيم وعاد الى نومه . فقرأها للمرة الثالثة وقالت : « أنا نفيسة بنت الحسن . . . وأعادت ما قالته مرة ثالثة . فأجابها بالامثال للامر ، واستيقظ وبحث عن بيت في الحال وانتقل اليه وما أن تم نقل جميع ما بالبيت حتى سقط جميعه وتهدم من غير ضرر لنفس ولا مال .

● كان للمرحوم الشيخ محمود الجباسي ، خادم مقام السيدة سكينة بنت الحسين ، رضى الله عنهما ، أخت صالحة ، تسلمت حليا ، كان على نعتن أخت محمد ذكر الله الحداد عند دفنها بالقرافة النفيسية ، ولما أرادت أن تسام الورثة الوديعة ، فاذا بقلادة من الذهب ضائعة ، فأنهموها بسرفتها ، واعتدوا عليها . فذهبت الى مقام السيدة نفيسة شاكية ، باكية ، تتضرع لربها ، وتتوسل بصاحبة المقام ، ان تظهر براءتها ، فرأت سيدة بهية الطلعة لها جلاله ووقار في عنقها قلادة شبيهة بالقلادة الضائعة ، فسارعت اليها ، واخذت منها القلادة ، والسيدة ساكنة هادئة ، ثم ذهبت بها الى أهل المتروفاة ، واعطتهم القلادة ، وأخبرتهم بواقعها : فاعتذروا اليها ، وأكرموها .

المشهد النفيسى

بنى المشهد النفيسى على يد ابن السرى بن الحكم امير مصر ، وهذا المشهد قائم على القبر الذى حفرته السيدة نفيسة رضى الله عنها بيديها فى حياتها ، ودفنت فيه عند موتها فى عام ٢٠٨ هـ

وكان مكتوبا على اللوح الرخامى الموضوع على باب الضريح ، وهو الذى كان مصفحا بالحديد ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه مسعد بن أبى تميم الامام المنتصر بالله امير المؤمنين . صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائهم المكرمين .

امر بعمارة هذا الباب السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الانام كافل قضاء المسلمين وهاذى دعاة المؤمنين عضد الله به الدين وامتع بطول بقاءه المؤمنين وادام قدرته واعلى كلمته وشد عضده بوالده الاجل الافضل سيف الانام جلال الاسلام ، شرف الايام ، ناصر الدين خليل امير المؤمنين ، زاد الله فى علائه وامتع امير المؤمنين بطول بقاءه فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثمانين واربعمائة . »

والقبة التى على الضريح جددتها الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وامر بعمل الرخام الذى بالحراب وكان مكتوبا على باب الضريح البيتان الاتيان وهما للامام الشافعى رضى الله عنه :

يا اهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن انزله
يكفيكم من عظيم القدر انكم من لم يصل عليكم لا صلاة له (١)
وقد جدد المشهد عدة مرات احداها على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٤ هـ واخرى فى سنة ١١٧٣ هـ حيث جدد رحابه ورواقه الامير عبد الرحمن كتحدا .

(١) اى لا صلاة كاملة .

وقد كتب على باب الضريح بالذهب على الرخام البيتان الآتيان ، وهما
للعلامة محمد بن اسماعيل النفراوى المالكى :

عرش الحقائق مهبط الأسرار قبر النفيسة بنت ذى الأنوار
حسن بن زيد بن الامسا م على ابن عم المصطفى المختار
وله أيضا ، ما كتب على باب القبلة بالذهب على الرخام ، وبهما حساب
السنة التى جدد فيها المشهد :

عبد الرحمن لعفو قد ترحى قد بناها روضة للزائر
فلذا ارختها يا زائريها ادخلوها بسلام آمنين .
وقد أمر عباس باشا الاول بصنع مقصورة لقبرها من النحاس الاصفر
مكتوب عليها :

مقصورة اتقنت الله صنعتها تستوجب الشكر عند الله والناس
تذيع همة منشئها مؤرخة من بعض طيب احسان لعباس
واقم بناؤه الحالى فى سنة ١٣١٢ هـ وافتتح للعبادة فى سنة ١٣١٤
باحتيال فخم .

وقد ورد فى بعض المراجع انه لما ازيل البناء القديم ورفعت التربة عن
صحن المسجد ظهرت مقامة القبر مبنية بالطوب اللبن . وحدثت ثغرة فى
المقامة فسولت للمهندس المشرف على بناء المسجد نفسه أن يمد يده من
الثغرة ليستطلع ما فى القبر ، فمدها فمست جسما كجسم النائم ، فأصيب
كفه فى النخال بدمل استمر فى علاجه ثلاثة أشهر ولم يبرأ منه الا بتفلة من
فم احد الصالحين معروف باسم الشيخ سليم ابى حسين المساهمين ، بعد ان
استتابه فتاب وقرأ الفاتحة .

وهذه الحكاية لا تزال ذائعة فى حى السيدة نفيسة الى الآن .
قال المقرئى « قبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة باجابة الدعاء
بمصر » .

وكان كافور الأخشيدي لا يدع زيارته السيدة نفيسة فى س يوم خميس
وعندما يبدو له باب المشهد من بعيد يترجل ويمشى ويدخل حاسر الرأس
ويسأل الله تعالى فى ضريحها حوائجه فتقضى ، ويفى بالنسدر ، وكان
يأتى بللسك والطيب والشمع والزيت والقناديل ، ويحسن الى خدم المقام
والفقراء كثيرا ، واستمر على ذلك الى ان توفى بمصر فى سنة ٣٥٦ هـ .

وما زال المشهد النفيسى مرفوع الأركان ، سميك البنيان يشع منه
الضياء وتنبعث من حفافيه النفحات والبركات .

المراجع

- القرآن الكريم
- تفسير البضاوى ، وابن كثير
- نور الأبصار
- اسعاف الراغبين
- الصواعق المحرقة
- تاريخ الرسل والملوك
- اسد الغابة
- الاسماعيل
- نهج البلاغه
- رياض الأحزان وحدثائق الأشجان
- اخبار الزينبات
- الرضا النضرة
- الجواهر النفيسة في مناقب السيدة نفيسة
- لطائف المنن
- محمد رسول الله
- بطة كربلاء
- فاطمة الزهراء
- السيدة زينب
- السيدة زينب
- الحياة البرزخية في القرآن
- السبده نفيسة
- كريمه الدارين
- حكم الاسلام في التوسل
- بالانبياء والأولياء عليهم السلام
- الشبلنجي
- محمد الصبان
- احمد بن حجر الهيتمي
- الطبرى
- عز الدين بن الاثير
- ابن عبد البر
- ابن أبى حديد
- محمد حسن القزوينى
- العبدلى
- المحب الطبرى
- الامام الشعرانى
- عبد الحميد جوده السحار
- د . بنت الشاطىء
- عباس محمود العقاد
- على احمد شلبى
- محمود الشرقاوى
- د . محمود بن الشريف
- محمد شاهين حمزة
- احمد فهمى محمد
- محمد حسنين مخلوف

رقم الابداع بدار الكتب ٧٨/٤١٨٨

الترقيم الدولي ٤ - ١١٦ - ٢٢٦ - ٩٧٧ ISBN

مطبعة المعرفة - عمارة التامين
ميدان لافونتين - ت: ٢٥٥٣٩٩٠

✽✽ هذا الكتاب يروى صفحات مشرقة
عطرة من حياة أهل البيت النبوى الكريم ،
سادات العباد ، وانوار الله فى جميع
البلاد .

✽✽ واذا كانت حياتهم - رضوان الله
عليهم - عطرا فواحا لا يغني بمرور الزمن
، ولا يذهب ريحه الطيب الزكى بتوالي
الحقب والأيام ، انما هو عطر خالد باق
نستروحه فى كل حين فنجد انه هو العطر
الفواح الذى تهدا به النفس ، وينشرح له
الصدر ، ونستقبل به الحياة فى دفاعنا عن
الحق ، وذودنا عن المبادئ الشريفة -
احسن استقبال

- وما احرانا ان نقتبس من منهجهم
القويم ، وطريقهم المستقيم فى الحياة ما
يوصلنا الى خير الدنيا والآخرة.
✽✽ والان نتركك - عزيزى القارئ -
مع هذه الرحلة الطيبة التى يصحنا فيها
الكاتب الاسلاسى الكبير الاستاذ محمود
الشرقاوى مع السيرة العطرة لآل
النبوى الكريم .

Bibliotheca Alexandrina



0396046

